ميسلون هادي

شاي العروس

رواية

شاي العروس

رواية

شاي العروس

رواية

ميسلون هادي

2010

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(2010/5/1916)

813.9
خماس، ميسلون هادي
شاي العروس/ ميسلون هادي خماس.- عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، 2010
( ) ص
ر.أ.: 2010/5/1916
الواصفات: القصص العربية//العصر الحديث/

- تم إعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية
يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى

ISBN978-9957-00-452-1 (ردمك)

- شاي العروس- رواية
- تأليف: ميسلون هادي.
- الطبعة العربية الأولى : الإصدار الأول 2010.
- الاخراج الداخلي وتصميم الغلاف: دائرة الإنتاج/ دار الشروق للنشر والتوزيع .
- جميع الحقوق محفوظة ©

دار الشروق للنشر والتوزيع
هاتف : 4624321/4618191/4618190 فاكس: 4610065
ص.ب: 926463 الرمز البريدي :11118 عمان – الأردن
Email: shorokjo@nol.com.jo
دار الشروق للنشر والتوزيع
رام الـلـه – المصيون : نهاية شارع مستشفى رام الـلـه
هاتف 2975632-2991614-2975633 فاكس 02/2965319
Email: shorokpr@planet.com

جميع الحقوق محفوظة، لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله أو استنساخه بأي شكل من الأشكال دون إذن خطي مسبق من الناشر .
All rights reserved. No part of this book may be reproduced, or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording or by any information storage retrieval system, without the prior permission in writing of the publisher.

وهو أيضا لا يستطيع أن يفعل شيئاً لفراشة
مقطوعة الجناح، لا يمكنها بدون الطيران، أن
تبقى على قيد الحياة أو حتى أن تكون فراشة.

1

الباب والنافذة

وضعت ربيكا أمامه قدح شاي ساخن يتصاعد منه البخار، وفرشت أمامه ورقة أخرى، ونظرت إليه باهتمام، وكأنها فعلاً تريد أن تعرف:

- ماذا ترى؟

نظر إلى الورقة الممرغة بالحبر ثم إلى وجه المترجم.. كانت عيناه كبيرتين واسمه سليم، ويبدو أنه قد جدد نظارته الطبية للتو، لأنها بعيدة جداً عن أنفه.. النافذة مفتوحة والغيوم تتلبد في السماء بشكل يوحي بأن الوقت مساء وليس ظهراً..

- ماذا رأيت؟

- .....

- ليست هناك إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى.

- .....

لم ير محمود شيئاً، ولكنه سمع صوت الصواعق في السماء، وتمنى لو عاد أعمى، كما كان أول مرة قبل صلاة الفجر في يوم يبعد عن هذا اليوم مسافة ألف سنة ضوئية.. عشرون ساعة هي عدد الزيارات التي سيبدو فيها مثل صورة فوتوغرافية خرجت تواً من شريطها المكنون، ولكي يراها الآخرون يجب أن تلمسها الأصابع

وتتلوث ببصماتهم.. سيبدو بقايا إنسان قديم في متاهة تلك المرأة التي تتنوع دببها البيضاء والرمادية فوق منضدة الكومبيوتر، وتزداد بطاقاتها الملونة فوق الجدار القريب من النافذة.. كان الوقت بداية كانون الأول.. والصواعق تزعق في السماء. وربيكا تنظر اليه.

السمع والبصر

كل يوم جديد هو أول يوم يعيشه من العمر.. يستيقظ محمود من النوم ويفتح عينيه الجديدتين على الدنيا الجديدة فتنتشر من حوله الألوان والأكوان والأضواء منبثةً من صندوق للعجائب كان خاتلاً في درج منزوٍ فلما انتبه إليه وفتحه، رأى ذلك الصندوق المسحور والتقاه وقُضي الأمر..

حدث ذلك عندما كان ينثر الماء البارد على عينيه القديمتين، ويغسل وجهه بالصابون الذي يتقلب بين يديه.. ارتجت شبابيك الحمام فجأة وتكسر الزجاج في مكان قريب. ولم يكن ما حدث سوى انفجار آخر أدخل قليلاً من الصابون العاطر إلى عينيه فأراق محمود عليهما ماء كثيراً، فاض من مآقيه وتدلى على شكل قطرات صغيرة جداً تعلقت بأهداب جفنيه المتهدلين. إنه صباح آخر، والماء يتساقط من شعره ولحيته وحاجبيه ومن أوراق الأشجار التي هطلت عليها أمطار سحابة ربيع عابرة سرعان ما انقشعت، فأشرقت الشمس واندلعت معها زقزقات العصافير وهي تأتي من نافذة الحمام مع صيحات الأولاد الذين ينتظرون خطوط الباصات الصغيرة وهم يضحكون. تلك لحظات تتكرر كل صباح ويعدها محمود الأجمل في يومه حيث تنتقل روحه من الظلمة إلى النور ومن اليأس الى أقصى السعادة، وهو لا يعلم أن

وجهه أيضاً يتحول من لونه الشاحب، إلى لون مشرق وردي تنشرح له المرآة.
فتح محمود عينيه تماماً بعد أن انتهى من غسل وجهه ويديه، فمرت من أمام عينيه نقطة سوداء تسير على سطح أبيض. كانت هذه النقطة تتحرك قليلاً ثم تتوقف.. ثم قليلا ثم تسير.. ثم قليلا ثم تتوقف.. فظن، في البداية، أن نوراً ساطعاً دخل الحمام من النافذة مع دلوك الشمس، قبل قليل، وهو اعتاد على استشعار الضوء القوي عندما يشتعل ورؤيته على شكل غواش أسود تتخلله نقاط بيضاء وحمراء تشبه الشموس الصغيرة. لكن بياض السطح حول النقطة السوداء بدأ يتضح رويداً رويداً لتتحول الغشاوة التي أمامه إلى حوض أبيض، بينما النقطة السوداء الصغيرة، التي كانت قد توقفت، تواصل سيرها مرة أخرى على حافة سيراميك المغسلة قريباً من يديه. رفع رأسه إلى أعلى فوجد المرآة، التي كان يقف أمامها كل يوم ولا يرى شيئاً، تعكس وجهاً جميلاً فيه لحية خفيفة وعينان شهلاوان وشعر أشهب.
"أخيالات وأوهام؟ أم بياض من بياضات الحُمّى التي انتابته ليلة أمس وأنهكت جسده؟ "أم أن هذا الوجه الذي أراه في المرآة، وقطرات الماء لا زالت تبلل رموشه وتقطر من شعره ولحيته وأنفه، هو وجهي؟ ".
لم يصدق محمود ما رآه في المرآة وقال لنفسه: "ماذا يحدث ؟؟ أهذا أنا؟ أحقا أنا؟ وهل أرى؟ وما هذه النقطة السوداء؟ أهذه

نملة؟"، ثم نظر إلى نهاية يده الممتدة إلى حنفية الماء وقال: "وهذه أصابعي؟" ثم إلى الماء المنهمر من الحنفية وقال: "وهذا هو الماء؟".. ثم مرة أخرى إلى المرآة وقال: "وهذا أنا؟ أمعقول أنني أرى أم أنني أحلم حلماً جميلاً في منامي وقد أخذ مني الوهم كل مأخذ، فاختلط الواقع مع نهايات ذلك الحلم الجميل؟. ولكني لم أعد أحلم بغير نساء صغيرات وجوههن الناعمة تشبه وجوه الدمى.. وهذا الوجه الجميل الذي أراه للمرة الأولى هو وجه رجل.. ولحيته هي لحيتي.. وشعره هو شعري.. وثوبه هو ثوبي.. وأنا أعرف أثوابي كلها وأحفظها عن ظهر قلب كما لو كنت أراها.. وتعلمت طوال عمري أن أتشمم عطرها فأعرفها دون أن أراها.. وأن تصفها لي عمتي فأراها.. أو ألمسها بأصابعي فأراها.. فهل ما أراه الآن هو أضغاث حلم أعمى، أم أن هذا الوجه الجميل الذي أراه هو وجهي، وهذه اللحية الشهباء هي لحيتي، وهاتين العينين الواسعتين هما عيناي وقد عاد إليهما البصر؟".

كانت الهيلوكبترات العسكرية لا تزال تطوف السماء، والنملة قد أصبحت فوق الجدار الشاهق تواصل سيرها إلى أعلى حتى التقت نملةً أخرى فتقابلتا وجهاً لوجه وتحدثتا برهةً ثم افترقتا على نحو جسيم ..هي المرة الأولى التي يعرف فيها محمود أن النمل يتحدث فيما بينه ويتشاور بحديث لا يدركه أحد.. جعله ذلك يفكر بأن يفرك عينيه جيداً هذه المرة، قبل أن ينظر إلى المرآة، ولكنه تراجع عن ذلك خشية أن لا يصح العبث مع نظره الذي قد شهد الحياة

للتو ولا يريده، أن يفارق ذلك الوجه الجميل قط.. لم يشأ أن يكف عن النظر إلى ذلك الوجه الذي ما أجمله!.. وخاف إن فرك عينيه أو تحرك من أمام المرآة، أنْ يذهب النظر من عينيه فجأة كما جاء فجأة، فتكون تلك الانتباهة فاصلة زمنية بين برهتين يعود بعدها إلى العمى وتعاود عيناه سيرتها الأولى..

3

الوجه والمرآة

ظل محمود ممدداً على فراشه مغمض العينين لا يريد أن يفرط بهذا الباب العجيب الذي استدار به المفتاح فانفتح فجأة على كنز ثمين.. لو استطاع النهوض لفتح النافذة لفعل، ولكنه شعر بالخشية أن يتحرك خوفاً على عينيه من الأذى. سمعته النافذة فانفتحت ببطء شديد على موجة هواء مرسلة من الريح، جعلته يفتح عينيه ليستمتع بذلك الهبوب العذب الذي جفف بعض العرق الراكد تحت عينيه. كان النسيم البارد يوحي بأن الوقت لا يزال ضحى، ولكن رائحة الطعام القادمة من بيت قريب وانتشار رائحته في هواء الغرفة يجعله يعتقد أن الوقت ظهر.. فهل هي الثانية عشرة؟... هكذا اعتاد أن يعرف أوقات اليوم من تفاوت الشمس وطراوة الهواء ورائحة الطعام. وبالرغم من اشتداد الهواجس والأفكار عليه فقد كان أول شيء فعله، بعد أن غسل وجهه وتوضأ للصلاة ونظر ملياً إلى المرآة، هو أن راح يتجول بين الغرف وينظر طويلاً إلى أثاثها وستائرها وسجاجيدها. وفي كل خطوة يخطوها، كان عليه أن يتوقف ليستعيد الوقفة نفسها ويسترد إحساسه بها عندما كان لا يرى. أجال بصره ملياً في السقف وتلمس الجدران بيديه كما كان يفعل من قبل وهو يلملم مشاعره السابقة التي عرفها في عماه ثم يطابقها مع ما يراه الآن أمامه من مناظر جديدة ليجد السقف أوطأ مما ينبغي والجدران تحاصره بطريقة لم يسبق أن خبِرها أو

توقعها بهذا الشكل. فوق الجدار صورة معلقة لأمه لم تبارح مكانها قط ، ولكنه لم يستطع الوقوف طويلاً أمامها لأن الضوء كان ساطعاً إلى الدرجة التي أحس فيها الخوفَ على روحه وعينيه من ذلك السطوع، وانتابته الحيرة من ذلك العلو الشاهق للسلّم المؤدي إلى الطابق الثاني ثم تملكه الشعور بالدوار وترنح قليلاً وهو يمر أمام النافذة ليلقي نظرة على امرأة كانت واقفة قرب باب البيت المجاور.. وتزيح ماء المطر من أمامه.. وعندما رأى الأشجار التي بللها المطر تتحرك للمرة الأولى في حياته، بدت له وكأنها تلك الأشباح التي كان يراها سابقاً في ظلمة عينيه قبل أن ينام. بدا له الأمر كما لو أن جسداً يولد للتو.. ولكنه بدلاً من أن يولد طفلاً جاهلاً لا يفهم ولا يعي، فإنه يولد انساناً راشداً واعياً، قد مر بهذه الحياة بخياله وأحلامه فيما مضى وها هو يراها في اليقظة لأول مرة. فأي مكان يمكنه الوقوف فيه دون أن يشعر بالحيرة أو الدوار؟ وكيف يبدأ بهذا الصحو المفاجئ على نحو صحيح لا يرهقه ولا يؤذيه؟ بل من أين يبدأ به على وجه التحديد لكي تكون البداية صحيحة وأبدية؟. دار أولا على صور الورود والآيات القرآنية المعلّقة على الجدران. ولما وصل إلى مذياع عمته الصغير ووجده غريب الشكل، ضحك مرة أخرى. أما تسجيلاتها الصوتية التي كانت تقرأ له الكتب فيها بصوت رخيم، فقد كانت موضوعة بقرب أشرطة القرآن مرفوعة فوقها صور لمحمد رفعت ومحمود خليل الحصري وعبد الباسط عبد الصمد ، وجدها، عندما تأملها، تقول بأن أصواتهم أجمل من أشكالهم... فيما عدا بتهوفن الذي كان عصام

قد أهدى إليه سيمفونيته التاسعة قبل عام، فيا للتطابق التام بين وجهه البري الطليق وموسيقاه المنطلقة إلى السماء لكي تصرخ من مكانها الفاني على الارض وتقول: هذا أنا ذا. إني موجود... ولكن محمود سرعان ما استغرب، بعد أن شغَّل شريط الموسيقى ، أن تكون توقعاته صحيحة عن أصحاب هذه الصور التي فوق الأشرطة؟ فهل كانت موجودة هناك دائماً وهو لا يعلم. كأنه يشعر بأنه قد رآها من قبل وعرف أصحابها منذ زمن طويل، بل أن المشهد برمته يبدو وكأنه قد تكرر وحدث من قبل.

قرر أن يعود من حيث بدأ، إلى المرآة المعلقة فوق حوض الحمام الصغير، ليتم له التأكد من أنه سيرى الوجه نفسه الذي رآه قبل قليل.. وفعلاً عاد إلى الحمام ونظر إلى المرآة، فلما رأى وجهه الجميل مرة أخرى على وجه اليقين قال: "الحمد لله رب العالمين"، وكررها عدة مرات وهو ينظر إلى بؤبؤي عينيه عن كثب ولوقت طويل، بينما موسيقى بتهوفن تملأ البيت وتتردد بينه وبين هذه الدائرة السوداء الصغيرة المحاطة بدائرة أفتح منها تتخللها خيوط دقيقة تجعلها تبدو كما لو كانت زجاجة. وظل هكذا فاتحاً عينيه على عينيه وناظراً بالحدقتين إلى الحدقتين حتى دب التعب إلى عينيه، فقرر أن يتمدد على فراشه ويغمضهما لكي يرتاح من التعب ويترفق بهذا الكنز الثمين.

سمع صوتاً يقترب من بعيد ثم يناديه، فلم يستطع النهوض من الفراش لتدبر أمر عمته التي سيراها للمرة الأولى، وهو الآن يسمع

أقدامها تقترب من باب البيت، فاحتار ماذا يقول لها؟ وكيف يقول؟ وهل يكشف لها عن تلك المعجزة التي حدثت لعينيه قبل ساعات قلائل، أم يدع السر ينكشف من تلقاء نفسه عند مجيء الأوان؟! فكر أن يخرج إليها فاتحاً ذراعيه على سعتهما، ثم يضحك ويزف لها الخبر الصاعق بأنه قد أبصر وأنه يراها. ولكن.. لا.. لن يستطيع أن يفعل ذلك وهو لا زال متضارباً مع نفسه غير واثق من شيء، ولن يخبر أحداً قبل أن يتأكد بأن ما حدث ليس هذياناً من هذيانات الحمى، ويُصدّق هو نفسه أولاً بأن ما حدث قد أصبح أمراً مقضياً.

نادت عمته عليه مرة أخرى عندما أصبحت داخل البيت، فخرج عليها وهو يضع النظارة الشمسية فوق عينيه، فسمعها تقول:

- جئتك بالغداء. هل كنت نائماً؟

قال محمود:

- كلا.. لم أكن نائماً.

ما للكلمات هي الأخرى تبدو غريبة عندما يقولها وهو يرى، وكأنها تتصادى مع نبضات قلبه الذي أخذ يخفق بعنف.. فتتناغم، عندما يلفظها بلسانه، مع الهواء بموسيقى وروي!؟. جعله ذلك حائراً ومضطرب الأنفاس، وانتابته المخاوف من أنه إنْ تحدث أمام عمته الآن فإن الكلمات سوف تفضحه وتقول إنه أبصر ورأى.

قالت العمة:

- ما بك، يا محمود؟ هل أنت مستعد للخروج؟

ارتجف قلبه وقال:

- لا.

قالت:

- تعال تغدى، إذن، يا ولدي.

رفع عينيه للمرة الأولى إلى عمته، واختلس نظرة طويلة إلى وجهها القريب. ولما جلس على الأريكة، فتحهما من خلف النظارة السوداء بقلب مرتجف، بعد أن كان قد جاء من غرفة النوم مغمض العينين سائراً في عماه. شاعراً.. إنه يسير فوق هواء لا أرض تحته.

هي ذي إذن! المرأة ذات الصوت الواطئ والرائحة الزكية التي لا يعرف في البيت امرأة سواها.. هي ذي عمته التي أصبحت، ومنذ أن ماتت أمه، الأم والصديقة والدليلة التي تأخذ بخياله إلى العالم لكي يرى ما لا يراه ويعرف ما لا يعرفه... وفي السادسة عندما مات الضوء في عينيه تماماً، أصبح يرى من خلالها الأحياء والأشياء والأضواء. لعلها كانت دون أن تدري بطلة بشرية لإحدى القصص التي روتها له عن مريضين في غرفة مستشفى واحد. كلاهما كان معه مرض عضال أحدهما كان مسموحاً له بالجلوس فى سريره لمدة ساعة يومياً بعد العصر. وكان سريره بجانب النافذة الوحيدة فى الغرفة. أما الآخر فكان عليه أن يبقى مستلقياً على ظهره ناظراً إلى السقف.. وفى كل يوم بعد العصر، كان الأول يجلس فى سريره ، وينظر من النافذة، ويصف لصاحبه العالم

الخارجي. وكان الآخر ينتظر هذه الساعة كما ينتظرها الأول، لأنها تجعل حياته مليئة بالفرح، ففى الحديقة كانت هناك بحيرة كبيرة يسبح فيها البط، وثمة رجل يؤجر المراكب الصغيرة للناس يبحرون بها فى البحيرة. وآخرون يتمشون حولها أو يجلسون فى ظلال الأشجار أو بجانب الزهور ذات الألوان الجميلة. أما منظر السماء فكان بديعاً يسر الناظرين. وفيما يصف الأول كل هذه المناظر، ينصت الآخر فى ذهول لهذا الوصف الدقيق الرائع، ثم يغمض عينيه ويبدأ فى تصور ذلك المنظر البهيج للحياة خارج المستشفى. ومرت الأيام والأسابيع وكل منهما سعيد بصاحبه. وفى أحد الأيام جاءت الممرضة صباحاً لخدمتهما كعادتها، فوجدت المريض الذى بجانب النافذة قد مات خلال الليل. ولم يعلم الآخر بوفاته إلا من خلال حديث الممرضة عبر الهاتف وهى تطلب المساعدة لإخراجه من الغرفة. فحزن على صاحبه أشد الحزن. ثم طلب من الممرضة أن تنقل سريره إلى جانب النافذة. ولما حانت ساعة الصباح تحامل على نفسه وهو يتألم، ورفع رأسه رويداً رويداً مستعيناً بذراعيه، ثم اتكأ على أحد مرفقيه وأدار وجهه ببطء شديد تجاه النافذة لينظر إلى العالم الخارجى. وهنا كانت المفاجأة.. لم ير المريض الآخر أمامه إلا جداراً أصم من جدران المستشفى. نادى الممرضة وسألها إن كانت هذه هى النافذة التى كان صاحبه ينظر من خلالها، فأجابت أنها هي. فالغرفة ليس فيها سوى نافذة واحدة تطل على ساحة داخلية. ثم سألته عن سبب تعجبه، فقص عليها ما كان يرى صاحبه عبر النافذة وما كان يصفه له مناظر فقالت الممرضة

متعجبة: ولكن المتوفى لم يكن يرى سوى هذا الجدار الأصم. ولعله أراد أن يجعل حياتك سعيدة حتى لا تصاب بالحزن..

فهل هذا ما أرادته عمته تماماً؟.. أن تجعل حياته سعيدة وتأخذ بيده إلى نور كانت تراه حتى في الجدران الصماء وظلالها السوداء. عندما كان صغيراً، كانت تجلس معه على واحد من المقاعد العريضة في معهد النور للمكفوفين، وتكتب له كل كلمة يقولها أساتذة المعهد، وتحفظ عدد الثقوب لكل حرف من الحروف، وطريقة رسمها على مسطرة بريل. وعندما تعود إلى البيت وهي تحمل عنه الأقلام والأوراق فإنها تقضي الساعات الطوال وهي تلقّنه حفظ الحروف النافرة وتقرأ له دروس التاريخ والجغرافية، ثم لا تنام ولا يهدأ لها بال حتى تتأكد من أنه قد أتّم جميع واجبات الدرس لديه، بل تزيد على ذلك بأن تحثه على أن لا يترك قراءة النوتات أو التدرب على آلة العود التي تَعلَّم العزف عليها في دروس الموسيقى الشرقية التي كان يتلقاها في المعهد.

عشرات الكتب التي كانت بحوزتها أيام الشباب، جلبتها له وأعادت قراءتها عليه أو حفظتها في تسجيلات صوتية متلوة بصوتها، واختارت له منها ما قالت إنها أحبتها منذ أيام الجامعة ولا زالت تحبها لحد الآن، فجعلته يحبو بالقراءة من روايات بوليسية وتاريخية مبسطة، ثم ينهض بعدها ليحفظ أشعار المتنبي والمعري والشابي والجواهري وبدر شاكر السياب. ولما وجدت في نفسه القدرة العجيبة على الحفظ والهوى لفلسفة المعري وأدبه

زادت عليه بأن جاءت له بكتب الفلاسفة الإغريق الذين سبقوا المعري كأرسطو وسقراط وأفلاطون والذين تلوه من المعاصرين، ككانْت وهيغل وشوبنهاور، ثم اختصرت له "قصة الفلسفة" في كلمات معدودة، وقالت له إنها، في أيام الجامعة، قد نظمتها في خريطة لكي لا تنسى أو تتوه عن فكرة أو إسم أو مضمون. خريطتها كانت تتضمن القول إن كل فيلسوف كان ينظر إلى العالم وهو ينظر إلى نفسه.. المعري وشوبنهاور ونيتشة وأفلاطون وكانْت وهيغل وفرويد وابن عربي، كلهم أرادوا العالم مثلما يكونون هم وليس مثلما يجب أن يكون العالم. وفيلسوف فرنسي آخر اعتبر الجنون هو السواء لأنه كان مجنونا، ثم تضحك وتقول له:

- وكل من يقرأ ويفكر كثيراً سيصبح مجنوناً في النهاية.

ولكن محمود كان لا يضحك لضحكها انما يسألها جاداً:

- وهل هم جميعاً في النار الآن؟

ولا يذكر أنها كانت ترد عليه قط بغير ضحكة طويلة وجملة مقتضبة تقول: "و اللـه لاأعلم" كما لا يذكر أنه قد قرأ بطريقة برايل الصامتة من الكتب أكثر مما قرأه عن طريقها.. وعندما علمتْ أن كتاب "الأيام" لطه حسين هو ضمن مقررات المعهد ذهبت واشترته وراحت تقرأه معه للمرة الأولى، وتستعيد معه مقاطع كاملة من أجل حفظها عن ظهر قلب. عندما كان يستمع إليها، كان يتساءل إن كان حزنه يشبه حزن طه حسين الصامت العميق الذي سمع إخوته يصفون ما لا علم له به فعلم أنهم يرون ما لا يرى. وكيف اختلط ذلك الحزن مع حس مفرط بالكبرياء جعله يحرّم على نفسه، وهو

صغير، كل الألوان التي تؤكل بالملاعق، لأنه كان يعرف أنه لا يحسن استعمال الملعقة، وكان يكره أن يضحك إخوته أو تبكي أمه أو أن يعلّمه أبوه كيف يأكل، في هدوء حزين. ثم حرّم على نفسه من ألوان اللعب والعبث كل شيء، إلا ما لا يكلفه عناء ولا يعرضه للضحك أو الإشفاق. وانصرافه هذا عن العبث حبب إليه لوناً من ألوان اللهو هو الاستماع إلى القصص والأحاديث، فكان أحب شيء إلى نفسه هو أن يستمع إلى إنشاد الشاعر أو حديث الرجال إلى أبيه أو النساء إلى أمه.. ومن هنا تعلم حسن الاستماع. فالنساء في قرى مصر، كما يقول، لا يحببن الصمت ولا يملن إليه، فإذا خلت إحداهن إلى نفسها ولم تجد من تتحدث إليه، تحدثت إلى نفسها بألوان من الحديث، فغنّت إن كانت فرحة، وعدّدت إن كانت محزونة. وكان طه حسين أسعد الناس بالاستماع إلى أخواته وهن يتغنين، وإلى أمه وهي تعدّد. لكنه لا يعرف كيف حفظ القرآن؟ ولا يذكر كيف بدأه أو كيف أعاده؟ وليس غريباً أن ينسى طه حسين ذلك، فقد أتم حفظه وهو لم يتم التاسعة من عمره. ومن حفظ القرآن فهو شيخ، مهما تكن سنه كما يقول طه حسين.

هي ذي إذن تلك المرأة الحنون التي لولاها ما تعلم شيئاً ذا بال ولا تعرف على فرح الأطفال خارج عماه.. هو ذا فستاتها الغامق الذي لا يعرف له لوناً محدداً، ووجهها العجوز المتغضن الذي لم يتفاجأ به قط، وإنما وجده يتطابق مع صورة خلاّبة لها كان قد رسمها في خياله طوال عشرين عاماً مضت. بل إن التطابق هو ليس ما يصح قوله عن ذلك الوجه الأليف، وإنما الإحساس الغريب

بأنه قد رأى ذلك الوجه من قبل فعلاً وأن هذه الأصابع النحيلة مألوفة لديه وأن هذه الجرايد التي تفرشها على المنضدة أمامه، سبق أن رآها هي أيضاً من قبل، كما لو أن كل ما يحدث الآن، كان قد رآه وقد حدث فعلاً ذات زمان مضى، وأنه يعيش حياة أخرى بعد أن حلت روحه في جسد آخر لإنسان يرى، أم أن كل الذي يحدث منذ أن استيقظ في الصباح، ما هو إلا عمل من أعمال الجن، أو لعبة غامضة تلعبها معه مخلوقات أخرى؟.. أو لعل هذا اليوم هو الأول يوماً من أيام كون جديد.؟

ولكن كيف ذلك وهذه هي عمته.. وهذا هو منزله.. وهذا الطعام الذي أمامه لم يتسنه وهو الذي ما انفكت عمته تأتي به إليه العمر كله ومنذ مئات الأيام لعشرين عاما خلت؟.. فهل كل ما في الأمر أن هذا اليوم غريب ومختلف لأن ما كان يراه فيما مضى بالسمع والشم واللمس يراه اليوم بالعين فيجده غير بعيد عما تخيله أو شعر به بالأذن أو الأنف أو الأصابع؟

فما أصدق ما كانت عمته تخبره به من كلام، عندما كانت تقول له "إني لا أخاف عليك من نار أو لص أو غاز يتسرب من الطباخ لأن لديك من الحواس والجوارح ما هو أرهف وأحدّ من نصل السكين، وهي التي ستحرسك من كل مكروه".

نظرت عمته ملياً إلى وجهه، بعد أن فرغت من فرش الجرائد على المنضدة ثم قالت:

- ولكن لماذا تضع النظارة على عينيك وأنت داخل البيت؟

ثم تحسست جبهته بيديها وقالت:

- كنتَ محموماً يوم أمس.. هل أنت بخير الآن؟

لم يجبها على سؤالها، إنما أمال رأسه بالإيجاب ثم ابتسم، فأعادت سؤالها وقالت:

- ها؟.. هل أنت بخير الآن؟

قال:

- نعم.. ولكن هل أنا جميل يا عمة؟

قالت عمته وهي تضحك:

- أنت لو نظرت إلى نفسك في المرآة لانفطرتْ المرآة من شعاع حسنك وجمالك.

قال محمود:

- وماذا يشعر الإنسان عندما ينظر في المرآة؟

قالت:

- يرى نفسه، فيصيبه الغرور.

قال محمود:

- وماذا يفعل الحيوان عندما ينظر في المرآة؟

قالت، وقد عادت ضحكتها إلى الظهور:

- يظن أن الذي يراه في المرآة حيواناً آخر، فيفرح به أو يهرب منه. أما سمعت بقصة قاعة الألف مرآة؟

- كلا لم أسمع بها.

- من زمن طويل في بلدة ما، كان يوجد قصر فيه ألف مرآة في قاعة واحدة.. سمع كلب بهذه القاعة فقرر أن يزورها،

وعندما وصل أخذ يقفز على السلالم فرحاً، ولما دخل القاعة وجد ألف كلب يبتسمون في وجهه ويهزون أذيالهم فرحين فسُر جدا بهذا وقال في نفسه لا بد من أن أحضر هنا مرات أخرى كثيرة. سمع كلب آخر بهذه القصة فقرر أن يزور القصر مثل صديقه ولكنه لم يكن فرحاً بطبيعته.. مشى بخطوات متثاقلة حتى وصل إلى القاعة ذات الألف مرآة ولكن يا للعجب!.. وجد ألف كلب يعبسون في وجهه فكشر عن أنيابه، وذعر حين وجد ألف كلب يكشرون له عن أنيابهم، فأدار وجهه وجرى هارباً لا يلوي على شيء.

صمتت.. تحسرت ثم قالت:

- هكذا الأمر يا ولدي.. كيفما تنظر إلى الأمر يكُنْ.

ضحك محمود ثم قال:

- وأنتِ.. هل تنظرين إلى المرآة، يا عمة؟

قالت:

- كلا، يا ولدي.. عندما يبلغ الإنسان أرذل العمر فإنه لا ينظر إلى المرآة قط.

ابتسم محمود وقال:

- لستِ في أرذل العمر، يا عمتي.

واصلت كلامها وكأنها لم تسمعه:

- حتى عندما أمشط شعري، فإني أضفره وحسب، دون أن أنظر إلى شيء.

فرش محمود أصابعه أمام وجهه ونظر إليها بانتباه دون أن يشعر، فظنت عمته أنه يمدها إليها، وقالت:

- هل أقص لك أظافرك؟

قال:

- كلا، ولكن هل يداي جميلتان؟

قالت:

- ما حكايتك اليوم؟ تسأل كثيراً عن الجمال؟ أنت لست على بعضك هل لا زلت محموماً؟

ثم أخذت كفه بين يديها لتتأكد من اختفاء الحمى التي لازمته منذ يومين، فقال محمود لنفسه: "أنا لست على بعضي.. هذا ما أنا عليه الآن.. فعلاً أنا لست على بعضي". ثم شبك أصابعه مع بعضها البعض وقال:

- أنا بخير.

قالت له عمته:

- ولكن لماذا التلفزيون مطفأ؟ ألا تشاهد التلفزيون؟

"تشاهد؟".. هذا ما يتمنى ان يفعله اليوم وهو يشاهد فعلاً، لولا أن عينيه تنقهان.. متعبتان.. وإذا أقحمهما في كل شيء منذ اليوم الأول بعد العمى، فإنهما ستكلاّن وتصيبانه بالدوار، كما حدث معه بعد الفجر بمجرد أن وقف أمام النافذة.. إذ داخ وهو ينظر إلى أغصان الأشجار ورأى ظلالها السوداء وهي تتحرك، فكيف إذا ما داس بعينيه على تلك الصور المتلاحقة التي لا تكف عن التلون والتحرك والتتابع في جهاز التلفزيون؟.. لا يعرف بعدُ كيف ستكون تلك الصور؟.. منذ أن كان صغيراً وهو يشاهد التلفزيون بأذنيه..

ويرى الناس بقلبه. فإذا ما عرض التلفزيون لعبة كرة قدم أو برنامجاً أحبه، ناداه أبوه وقال: تعال وشاهد... وكان يحفظ ويعرف ما يشاهده عن ظهر قلب.. ويسأل عن أصحاب الأصوات التي يسمعها أو ألوان الملابس التي يرتدوها وأوصاف وجوههم التي ما تلبث أن تتحول إلى أحلام وخيالات جميلة تلاحقه في صحوه ومنامه... صاحت عمته بصوت عال:

- محمود.. محمود.. أين أنت؟

نظر إليها مشدوهاً.. كانت عمته قد اعتادت منه أن لا يجيب على أسئلتها أحياناً، ولكن هذه المرة ألحّت عليه بالسؤال:

- محمود، إني أتحدث إليك وأنت لا تنصت.. ألست هنا؟

لم يقوَ على التفوه بالكلام لشدة انشغاله بالأفكار المتلاحقة التي كانت تخطر على باله.

فأعطته عمته جهاز الريموت وقالت:

- لست على بعضك، يا محمود.. لا أدري ما حل بك.. خذ شغلّه وقتما تشاء.

شعر والجهاز بين أصابعه، بالحيرة أمام ألوانه التي كان ينظر إليها من تحت نظارته السوداء ولا يتعرف منها سوى على اللون الأحمر.قد مرت به تلك الالوان من قبل عندما كان طفلاً ولكنه لايستطيع التمييز بينها الآن بوضوح.

قال:

- عمتي، ما ألوان الأزرار الموجودة على الريموت؟

قالت:

- كلها بيضاء ماعدا الزر الأخضر للتحويل.. أما الزر الذي تدوس عليه للتشغيل فهو أحمر.
"أحمر؟" هو نفسه ذلك اللون الذي كان يرافقه على شكل النقطة في بحر الظلمات، وعندما تسطع أحياناً بعض الأضواء فجأة من حوله فتتراقص داخل عينيه كالقناديل، فإن الأحمر هو اللون الوحيد الذي كان يراه واضحاً في ذلك السطوع المفاجئ أيام عماه.
ثم ضحكت وقالت:
- وأنت صغير كنت تسألني كثيراً عن الألوان.. وبدلاً من أن تلعب بها، كما يفعل باقي الأطفال، كنت تسألني عنها.. تسألني عن الغيم والسماء وعن الفواكه والألعاب والملابس، بل حتى عن أبطال الأفلام ولاعبي كرة القدم الذين يظهرون في التلفزيون.. كنت تسألني عن ألوان ملابسهم ، والأرقام التي يضعونها على فانيلاتهم، حتى حفظتَ ذلك كله عن ظهر قلب.
يشعر الآن، وهو ينظر إلى السماء، بأنها بيضاء مائلة للرمادي وبأن الغبار تحتها يملأ المكان بلون خانق شديد الغموض.. إنها تبدو قريبة جداً من الأرض، وهذا القرب يصبح مفزعاً عند اتحادهما معاً في خط بعيد لعله خط الأفق.. كما لو أن الدنيا تنطبق فيها السماء على الأرض هناك، فأين هي سماء الطفولة التي تضحك زرقاء زاهية وكأنها خارجة للتو من علبة الألوان والغيوم تحتها بيضاء لا تتحرك... صوت عمته بدا عالياً وهو يقول:

- محمود.. محمود.. ألن تأكل؟ فأنا ذاهبة الآن إلى البيت.

كان الطعام يتنفس وهو يعلو ويهبط من فرط السخونة قال لها وهو يدوخ أكثر وأكثر:

- سآكل فيما بعد.

سمع، من مكانه على الأريكة، صوت اصطفاق الباب، ثم ترددت خطوات عمته في طريقها على ممر الحديقة، تاركة له طبق الطعام الشهي على المنضدة، ووردة الحب الصافي يغنيها محمد عبد الوهاب... ثم اقتربت خطواتها من الباب مرة أخرى، وبدون أن تفتحها نادت من خلفها وقالت:

- الراديو لا يزال مفتوحاً في المطبخ، فاطفئه لكي لا تنفد البطارية.

الطير والشجر

بعد أن تناول الغذاء، عاف صور التلفزيون ونهض من مكانه ذاهباً إلى المطبخ، إذ كان جائعاً منذ أن جاءت له عمته بطعام الغداء.. ولكنه كان ضائعاً أيضاً يريد انصرافها بأسرع وقت ممكن لينصرف هو إلى لجة هذا الكون الجديد الذي وجد نفسه يعوم فيها منذ آذان الفجر. البيت واسع وفسيح، وعليه الآن أن يغمض عينيه بعد كل منظر يراه ليُحْكِم رؤيته جيداً فيغلق، أجفانه عليه ثم يضمه بين جفنيه آونةً من الوقت كما الصورة المكنونة في شريطها الأسود، والتي إذا ما تعرضت للضوء الزائد تحترق. القهوة والسكر كانا يذوبان في فمه والآن في عينيه. أما النار فكانت، وهو مغمض العينين، دفئاً ولهيباً وحلماً مشتعلاً لا يخبو ولا يموت.. وها هي الآن تتلون من لون إلى آخر كلما أدار مفتاح الموقد ليشعل النار.. جمالها شيء لا يصدَّق، ولكن أين هو الرماد؟ الرماد الذي طالما أغراه بملمسه الناعم الذي يشبع ملمس ذرور الأطفال المضمخ بعطر طيب... وأين هو الدخان؟! الدخان الذي رائحته الفاغمة تشبه رائحة بخار حمام حار في يوم شتوي بارد؟

سمعه الدخان وتسلل من نافذة المطبخ المفتوحة .. إنه يتصاعد من حطب مشتعل في مكان قريب وهو لا زال يحمل شذاه المعلوم... أما في المنقل الذي كان والده، صاحب الكيف والمزاج، يشوي

الكباب، فكان هذا الدخان ينشر رائحة أطيب عندما يشتعل الفحم المشبع بالنفط، فيتشمم محمود رائحة النار تتبعها رائحة الشواء التي ما أن تتصاعد حتى يناديه أبوه بالقول:

- تعال شوف.

كانوا يدعونه للرؤية عندما يقصدون استعمال كل الحواس إلا الرؤية. مع ذلك، لم يهم محمود ما يقولونه بقدر ما يقصدون مما يقولونه.. يقصدون الوجود الحلو بحضرة المنقل الواطئ حيث يسمع الحطب اليابس يطقطق ويفقفق أثناء الإشتعال فتصيب تلك الطقطقات قلبه بشرارات البهجة، ثم يصله دفء اللهيب المنتشر ويشم رائحة الدخان الطيبة وهي تتصاعد، وبعد ذلك يهمد الدخان وتنتشر رائحة الشواء، فيعرف أنه يوم عشاء مميز، يثمل بعده برائحة الشاي الخدران تتضوع من إبريق الشاي المطمور بين ركام الرماد الساخن.

لأول مرة في حياته يرى بخاراً يتمايل ويتصاعد من قدح الشاي الساخن، فجعله ذلك يمد يده إليه لاعتقاده أن هذا البخار سيترك أثراً على أصابعه وهو يتصاعد إلى أعلى.. ولم يكن هذا معقولاً أو ممكناً في حدود إدراكه وفهمه. ولكن عشرات الأفكار، وهو يتغدى، وعشرات أخرى، وهو يشرب الشاي، تنهال عليه بغزارة ولا تدع له مجالاً لإدراك معقوليتها أو إمكانيتها على التحقق. فقد سمع طنين النحلة دون أن يعرف، كما يرى الآن، أنها تطفو في الهواء من شدة النحول. وعرف ملمس الطيور فيما سبق وسمع أصوات تغريدها

دون أن يعرف معنى الطيران. كما سمعت أذناه زقزقات الصيصان دون أن يعرف، كما يرى الآن، أنها تفتح مناقيرها وتضحك. إنه يشفق عليها وهو يرى كيف تضم رؤوسها بين جوانحها وتغفو، فيجدها أجمل مِنْ أنْ تمتد لها يد بالسكين.. سمعته الكتاكيت فجاءت عند قدميه.. فابتسم وقال لنفسه "لو أنها كانت من الضواري لما تجرأ على ذبحها أحد".

لون السماء الزرقاء هو أيضا أفتح مما كان يتصور.. إنه مخلوط بالغبار. أما الطيور فإنها تبتعد كثيراً في السماء ولأبعد أبعد مما يتذكر في طفولته، بل إن أجنحتها الصغيرة يمكن لها أن تتوقف عن الحركة حتى أثناء تحليقها في الفضاء الرحيب. فما أغرب ذلك الطيران وما أجمل أن تعود حاملة العيدان والقش في مناقيرها لتبني أعشاشها بين أغصان الأشجار العالية!..

فالوقت هو الربيع وكل شيءٍ من حوله يتحدث، فينصت هو إليه.. ويتحرك، فيرنو إليه.. إلى أن حان وقت الغروب، وتلونت الشمس بأجمل حلة من الألوان. داخ وهو ينظر إليها تثوي إلى مستقرها الأخير، بينما ضوؤها يتبعثر من فتحات السحب التي يبسطها الـلـه كيف يشاء، في خطوط مستقيمة تمضي إلى كل الاتجاهات.. ولشدة ما خلب ذلك المنظر قلبه وملكَ عليه جوارحه، عاد محمود وقال مشككاً في تكرار حدوث ذلك المنظر:

- ولكن لا أدري، أحقاً يرى الناس، كل يوم، هذه الجنة؟

صحن الفاكهة هو الآخر سيدله على جنة أخرى، هي الألوان.. البرتقالة رفعها وتحسس قشرها المتعرج.. والتفاحة دوّرها بين يديه وداعب جلدها الأملس.. ولكن ما هذه الثمرة الصغيرة ذات الزغب واللون الغريب؟.. هي ليست ثمرة اللالنكي ولا يمكن أن تكون ثمرة البطاطا.. فلعلها فاكهة ميتة لا يجب أن يتذوقها، فاكتفى بشمها ثم أعادها إلى مكانها في الصحن والضحكة لا تفارق وجهه الجميل.

وحده في البيت يومين متتاليين، يتقلب بين المرآة والنوافذ، يرى في الأولى وجهه الأشهب النظيف وفي الثانية الأشجار التي كانت تتفتح وقت الربيع، لونها هذا هو الأخضر، ولكن ماهذه النتف البيضاء التي تغطيها وتملأ سواقيها بفراش ناعم كالقطن؟ هل هذا هو القدّاح؟ ولماذا يتساقط بهذه الغزارة على أرض الحديقة وهو الذي من المفترض أن يتحول إلى ثمار البرتقال والليمون والكمثرى. وأين هي شجرة المشمش التي وصفها له أبوه ذات يوم بأنها تشبه العروس إذا ما أزهرت وارتدت حلة زفافها؟ انه ليشعر بالقشعريرة وهو يعثر عليها ويراها ترتدي ثوباً أبيض من القداح ما أجمله من ثوب، فلمن ترتدي هذا الثوب؟.. وكيف لا يجن الناس من جمالها أو لا يعطي الحق لوالده بعد ذلك أن يحب العرائس وجنائنهن.. انتابه شيء كالخجل وهو يراها أول مرة، وتاقت نفسه هو الآخر لجنة العروس عندما رأى شجرة المشمش بهذا الجمال. فقد داعب هواء الربيع الطيب وجهه وجسمه ، وطاش رأسه في دولاب الهواء الذي تدور فيه رؤوس الناس وقت الربيع.

لم يكن يبالي بالانفجارات التي يسمعها تحدث ولا يهتم لشيء سوى دروب هذه المتاهة المسحورة التي لا يعرف كيف دخل إليها ولا يعرف أيضاً كيف الخروج منها؟.. فقط يريد التوقف هنا وهناك والنظر إلى ورودها بلا انتهاء..

شاءت الصدف أن لا يأتي أبوه في هذين اليومين إلى البيت، فيضطره إلى الخروج معه إلى بيوت قريباته أو إلى الإنصات إليه وهو يملي عليه اقتراحاته حول الزواج بهذه الفتاة أو تلك من بنات أولاء القريبات. فاعتبر محمود تلك الخلوة من علامات السعد التي لازمته وهو يستعيد بصره ويغرق في مسرات هذا العالم المسحور. كان يبحث عن كل شيء وهو يرتفع من هاوية عماه إلى بستان النور والبياض.. أصبح في أرض مجهولة من السرور والبهجة.. يستيقظ إليها كل يوم وبالكاد ينام خشية أن تختفي تلك اللذة العالية تحت أكفان الظلام.. ولكنه اعتاد أن تكون لكل لذة شاسعة نهاية بحجم خرم أبرة أو رأس دبوس، وبهجته تلك غادرت الحديقة مثلما دخلت إليها عندما جن قلبه من الحزن لرؤية فراشة بجناح واحد مرمية على الأرض الأسمنتية دون أن ينتبه إليها أحد..... كانت بيضاء اللون ومرقشة بلون أسود وعلى جناحها الباقي توجد دائرة سوداء تشبه العين.. جلس بقربها على الأرض تحت شجرة زيتون، وشعر بحزن عليها يفوق حزنه على إنسان مريض أو جريح.... كانت تمشي بصعوبة وتجاهد من أجل الطيران فلا تستطيع... وهو أيضاً لا يستطيع أن يفعل شيئاً لفراشة مقطوعة الجناح لا يمكنها، بدون

الطيران، أن تبقى على قيد الحياة أو حتى أن تكون فراشة.. ستموت لا محالة.. بسكون مؤلم يدمر سكينته.. فكيف ينهي آلامها وهو الذي لم يسبق أن قتل حشرة في حياته وهو أعمى ولن يستطيع أن يفعل ذلك الآن وهو بصير؟.. كانت عمته تنهاه عن قتل الحشرات لأنها ترى الإنسان أكثر شراً من حشرات الدنيا كلها، فأي طفل عابث هذا من قطع جناح هذه الفراشة المسكينة وتركها تموت مرات عدة مع جناح الميت؟.. أكان يلعب معها، أم يتسلى مع الموت، عندما قص جناحها وحولها إلى رفات... لعله لم يدر أن العبث لا يصح مع الأجنحة. أو ربما كانت الأغصان أو الجدران هي السبب في هذا الجرح الذي لن تنهض بعده من جديد..

5

الأصل والصورة

عليه الآن أن يذهب بعيداً إلى مكان لا يعرفه فيه أحد ويترك الوقت لقدميه اللتين تتقنان السير، كيما تقودانه إلى الأماكن التي كان يسلكها فيما مضى طائعاً عصاه، والآن يسلكها على هواه وهو يتعثر في المسير. الآن وهو يرى كيف يتهجأ الخطوات بقدميه، أصبح سيره إلى الأمام أبطأ مما كان عليه وهو أعمى.. أصبح وهو يتلمس الطريق الواضح بعصاه يدوخ ويشعر بأنه يهبط الى أسفل، ويشغله هذا الوضوح عن تحريك قدميه بثبات والخطو إلى مكان آخر، فيترنح سارحاً بعينيه إلى الأرض أو يغمضهما قليلاً ليرتاح، شاعراً بأن الكثير من النظر يؤذيه ويتعب عينيه.

لم يكن شارع بيتهم هكذا ولا كانت البيوت على هذه الشاكلة. كانت أنظف وأكثر علوّاً وأسفلت الشارع أكثر سواداً.. وخضرة الأشجار أكثر دكنة. بعض الصور مألوفة لديه ولا تفاجئه إلاّ بأنه قادر على إبصارها، بينما صور أخرى لا يمكن تصديقها.. إنها سافرة في غرابتها سادرة في سحرها. الأرض تكاد تبلعه والعصافير تكاد تنقض عليه.. وحدها هذه الحديقة التي تملؤها الأزهار الملونة والحمضيات والأقاحي تبدو آمنة حول تلك المرأة الممشوقة التي تتحرك من بعيد كحورية الجنة وهي تقف أمام حبل ممدود تنشر فوقه ملابس أطفال ملونة!.

تساءل بينه وبين نفسه: "هل هذه هي أم هند؟" جارته نفسها التي، عندما وَلدت توأمها قبل أعوام، جاءت ابنتها هند إليه وطلبت منه أن يقرأ لهما الآذان في الأذن اليمنى، فزاد هو على ذلك بأن أقام الصلاة في الأذن اليسرى. فلما رآه أبوها الفظّ يفعل ذلك قال له بصوت غليظ يكفي لأن تنفضّ عنه أمة كاملة من البشر:

- العميان.. ألا يفعلون شيئاً غير عزف الناي أو قراءة القرآن.

فقال محمود:

- وماذا تريدهم أن يفعلوا؟ يصلّحون الساعات اليدوية؟

لم يستطع محمود وهو يخرج من بيته أن يرى وجه تلك المرأة جيداً، ولكنه شعر بها ظلت واقفة في الحديقة تنظر إليه وهو يسير، فتساءل محمود مع نفسه إن كانت قد لاحظت اختلافاً في الطريقة التي يتحرك بها؟، وقال إن الكثير مما يراه هو جديد وجنوني، كتلك الملابس الملونة التي يتلاعب بها الهواء على الحبل الممدود، أو هذه الأوراق اليابسة التي تدفعها الريح الخفيفة إلى أمام فتلاحقه وتتراقص برشاقة حول قدميه.

شعر بتلك المرأة لا زالت ملتفتة إليه حتى أوصلته الى رأس الشارع، وهناك وجد بنات جميلات يشبهن الدمى يقفن على شكل حلقة، ويبدو أنهن ينتظرن باص الخط الذي يقلهّن إلى الجامعة كما كل يوم. نظر إليهن بحذر من خلف عصاه ونظارته السوداء وقال: "ترى أيهن هند؟"، التي سحرته بصوتها الواطيء الحنون، فكتب لها

أجمل القصائد وخصها بأكثر أحلامه جموحاً ووقاحةً. قلبه أخذ ينبض بعنف مع اقترابه من أولئك البنات الجميلات، فحدّب نظره إلى الأرض وبدأ يعد مع نفسه من الواحد إلى العشرة لكي يتخفف من توتره.

واحد.. اثنان.. ثلاثة.. أربعة.. خمسة.. ستة .....

.....

وشعر بدبيب خفيف يسري في جسمه كله، ثم يتصاعد سخونةً إلى رأسه، سرعان ما تحولت إلى عرق يسح من منابت الشعر بغزارة ليترك جسمه بعد ذلك بارداً كالثلج.. تساءل محمود مع نفسه مرة أخرى: "إن كانت رؤية النساء هي التي تحوّل رأس الرجل إلى مرجل يغلي، فماذا تفعل الملامسة إذن؟"، حقا إن الشيطان يجلس في الطرقات وإن عليه أن يسأل شيخه عبد الرحمن في هذا الأمر الذي يطرأ عليه بهذه الشدة لأول مرة.

تحرك باص الخط وبعض البنات لا زلن ملتفتات إليه، فهل كنّ ينظرن إليه كل يوم وبهذه الطريقة لأنه أعمى، أم لأنه جميل كما أخبرته المرآة وعمته بذلك؟ إحداهن ذات وجه يشبه وجه الطفل الرضيع ظلت ملتفتة وتنظر إليه بالرغم من ابتعاد الباص، فما أحلاه إذا كان ذلك يحدث كل يوم وما أحلاها إذا كانت حبيبته هند هي التي تفعل ذلك.

عليه الآن أن يقف على ناصية الشارع وينتظر الباص الذي لا يوجد فيه أحد ينظر إليه. عليه الذهاب الآن إلى مكان بعيد لا

يعرفه فيه أحد، ولا ينظر فيه إليه أحد، لكي يرى الأشياء ويتفرج عليها كما ينبغي للمرة الأولى أن تكون، وأن يتحاشى، قدر إمكانه، التقاءه مع من يمكن أن يفسد عليه تلك المتعة قائلاً في سرّه: "وليَتلَطّفْ ولا يُشْعِرَنّ بكم أحداً".

6

الوجود والعدم

قطرات مطر متباعدة سقطت على قميصه الأبيض، فرأى للمرة الأولى في حياته ثوباً مليئاً بالنقاط... في السادسة من عمره وجد تلك النقاط دماً يتساقط على قميصه المدرسي الأبيض بعد أن جرحته قضبان قفص الببغاء قبل أن يطير وكانت تلك القطرات آخر ما يتذكر أنه رآه قبل أن يسقط من السطح. الهواء العليل يحمل إليه أصواتاً بعيدة وحرارة الشمس تقرض جسده، فأحس أنه يريد الإمساك بتلك اللحظة الطيبة إلى ما لا نهاية وأن يتمكن من أن يتأبد في موقف الحافلة فتصبح لحظة واحدة في هذا اليوم المشمس، هي الزمان من أوله إلى آخره. على الأرض أوساخ وأعقاب سكائر وقطع زجاج وبقايا أطعمة، بينما وهو يرفع نظره إلى الأعالي وجد الفرق شاسعاً بين وساخة الأرض ونظافة السماء... الأرض أيضاً صاخبة والسماء صامتة وجسمه يترك على الأرض ظلاً أصبح مسفوحاً أمامه على شكل جسم مخيف وطويل تتقاطع معه ظلال الآخرين أو تمر عليه وتغطيه. تحسس ذلك الظل بعصاه وهو يتساءل كيف تُغيّر تلك الظلال اتجاهاتها وهي تتبع صاحبها فتمشى مرة خلفه ومرة أمامه أو تستدير إلى أحد جنبيه... جميعها سوداء اللون ولكن بعضها يبدأ طويلاً ثم يقصر أو على العكس يبدأ قصيراً ثم يطول... تُرى

لماذا لم يشاهد هذا الظل على الأرض تو أن خرج من البيت وظل واقفا قرب باب البيت حيث رأى تلك المرأة الممشوقة التي تقف في حديقتها المجاورة لحديقة بيتهم وتنشر ملابس أطفالها الملونة على الحبل.

كانت تلك الباب، وهو صغير، هي الحد الفاصل بين عالمه والعالم الأجمل الذي إذا ما انطلق إليه بسيارة أبيه استجمع نفسه في أذنيه وراح يتنصت بلذة إلى أصوات الشارع وهي تنهمر عليه من كل الاتجاهات. وعندما كانا يعودان متأخرَيْن، يشتد عليه النعاس فيأخذه النوم وهو جالس على المقعد الخلفي في لحظات لذيذة يريدها أن لا تنتهي أبداً أبداً أبداً، ولكنها كانت تنتهي في كل مرة بالاستيقاظ في المرآب على صوت مقبض باب السيارة وهو ينفتح ليجد نفسه محمولاً على ذراعي أبيه وهو نصف نائم. عندما باع أبوه تلك السيارة، قبل سنوات، خرج وقت قيلولة أبيه، ثم فتح باب السيارة وجلس خلف مقودها فترةً طويلة حتى تصبب العرق من وجهه. استدار بعد ذلك الى مكان منزوٍ، جعله بمأمن عن الأنظار، واحتضن صفحة السيارة وقبّلها قبل أن يأتي ليأخذها المشتري.

قال له السائق:

- أعطني يدك.

ولكن محمود لم يفعل، وعندما بادر أحد الصاعدين إلى مساعدته صرخ به محمود هائجاً:

- لا تلزمني.

تلفت إليه بعض الركاب وهو يصعد إلى الحافلة المتجهة إلى سوق رأس الحواش، وتركوه بعد لحظات.. اختار أن يجلس في مقعد خلف السائق.. لا يدري أين يضع عينيه الفارغتين.. أينظر إلى الشارع المنحني الذي كان قد أصبح قريب الشبه بصورة قديمة لمدينة مهجورة أم إلى صور النساء الجميلات التي كانت تغطي الحافلة من الداخل. ثوب السائق كان متسخاً وكذلك يداه، بينما الشارع ينقض عليه بشدة فيجفل ويتشبث بمساند المقعد مع كل مرة يتوقف فيها السائق أو يقترب من مؤخرة سيارة أمامه.

أصبح للمرة الأولى يشعر بأنه يهبط بينما هو يسير إلى أمام، أو يصعد بينما هو جالس في مقعده، ولم يشعر لحظة واحدة، وهو يرى الطريق أمامه، بالأمان الذي كان يشعر به وهو أعمى، فلاذ مرة أخرى بالظلام وأغمض عينيه عن معالم الطريق لكي لا يدوخ، مكتفياً بالاستماع إلى حديث مجموعة من الطلاب كانوا يجلسون خلفه ويتضاحكون طوال الوقت.

دخل إلى السوق من محل للألعاب وغادره من محل للألعاب.. ولم يكن في الأساس يفكر في الذهاب إلى السوق إلا من أجل صوت الفرشاة في قدح الماء... كان يسمعها تطقطق في القدح وهو صغير فيعرف أن الاطفال يغسلونها ويروونها بالماء قبل أن يغمسونها في قرص الألوان ليرسموا البيت والنهر والشمس والنخلة والبطة والإنسان. فأين سيجد الألوان جميعاً إلا في محل

للدمى والهدايا والملاعيب، ولو عاد طفلاً تلك اللحظة فإنه لن يدع شيئاً من كل هذه القطارات والمسدسات والكرات والمكعبات والبواخر والجنود والطائرات والسيارات الصغيرة، إلا ورفعه من مكانه وتفحصه بين يديه ثم اشتراه وأخذه معه إلى البيت، أو ربما سيتمنى أن يعيش ما تبقى من سنوات عمره بائعاً في هذا المحل ليعوّض بها ما فاته من سنوات الطفولة.. لم يتوقع ان يجد جنة الأطفال تلك خلف باب رث ومتداع... بل يبدو أن كل الجنان لا زالت موجودة خلف أبواب رثة ومتداعية. فما أحلاها تلك الجنة وما أحلاه هذا الكتكوت الأصفر الصغير ذو الوبر الناعم والذي يخرج رأسه من بيضة مكسورة ويصوصئ ثم يعيده بعد لحظات إلى البيضة مرة أخرى!

أحد الصغار داخل المحل كان في غاية غايات السعادة، وهو يدوّر فمه أمام حلقة صغيرة وينفخ فيها غشاء من الصابون سرعان ما يتحول إلى فقاعات كبيرة تتطاير هنا وهناك، فاستدار رأس محمود مع تلك الفقاعات التي تتكون، ثم تطير وترتفع في الهواء، ثم ما تلبث أن تنفجر وتغيب.. يقول لنفسه "ما أشبهها بلعبة الحياة التي تناديه، وعليه أن يقتنيها قبل أن تنفجر وينتهي كل شيء". بعد ذلك رفع كتاباً للألوان، فوجد فيه عدة ألوان تلتم وتتجمع في مكان واحد كالقمع، ثم تخرج من الطرف الاخر لوناً أبيض.

عاد إلى البيت، وفي حضنه كتاب الألوان وبيضة الكتكوت وشبكة حمراء مملوءة بالكريات الصغيرة التي يلعب بها الأطفال في

الشوارع. طوال الطريق لم يكف عن تحسسها بأصابعه والنظر إليها موضوعة في حضنه.. وكان كلما يلامس شبكة الكرات الزجاجية الملونة ينتابه إحساس غريب موحش يذكره بأنه لم يسبق له، وهو طفل، أن لعب هذه اللعبة أو جرّب متعة الربح بحفنة كريات لا تعادلها متعة الحصول على ملايين الكريات الزجاجية جاءت في غير أوانها أو اشتريت بدراهم معدودة كما فعل قبل قليل.

ألهذا يدعونه بالساكت أكثر مما ينادونه بالأعمى، فهو لا يبلغ أوج السعادة إلا وهو صامت مع نفسه يستعيد ثروة صغيرة من الفرح حصل عليها قبل قليل... وفكر أن ما هو مهم بالفعل هو ما يبدو مهماً.. وأن الطفل، الذي يتعارك ويتحاذق وتسيل منه الدماء من أجل كرة صغيرة بحجم البندق أخطأت طريقها إلى الهدف، يكون هدفه ذاك أكثر أهمية من أي هدف آخر في الكون يتسابق فيه الناس إلى منصب هام أو إلى مال وفير. عند تلك اللحظة المحددة عرف محمود أن لحظة الافتداء قد حانت وأن السعادة الغامرة التي شعر بها قبل قليل سينقضي أجلها لتحل بدلها سحابة من الحزن تقبض روحه بلا رحمة.

هذا هو ما يحصل له دائماً. عندما يكون في ذروة الفرح ويبلغ تلك الدرجة من الانتشاء واللذة فإن تلك اللحظة سرعان ما يجب أن تفتدى بعد قليل بنوبة ضاربة من اليأس والتعاسة.. ستنهال عليه الأسئلة من حيث يدري ولا يدري فيطرحها على نفسه مراراً

وتكراراً ويقول: "من أنا؟ ولماذا؟ وكيف سأنتهي؟"، ثم يقول: "ولماذا هذه الجلبة؟ ولأي شيء أمضي معها وهي التي ستنتهي كلها في لحظة واحدة مقدرة إلى العدم، فتختفي وأختفي معها إلى الأبد؟". كيف سيتوصل إلى أن يكون سعيداً في هذه الحياة، وتراب القبر ينهال على وجهه كل يوم، بل كل لحظة وكل حين. كان يريد إجابة قاطعة عن كل سؤال يسأله أو ظنٍ يشغل تفكيره دون أن يعثر على جواب... عشرة أعوام مضت تلتها عشرة أعوام أخرى كان فيها يسير ساكتاً في العمى، والطنين يعلو في رأسه، والحزن يحفر في روحه، فتنصحه عمته بقهر الحزن بأطايب الطعام.. ويقول له عصام إن حزنك المفرط يكفي لتأليف أعظم النوتات والأغاني.. ولكن لم يفده لا هذا ولا ذاك ولا فاده شيخه عبد الرحمن الذي، حين عثر عليه في نهاية المطاف، وجده يجيبه على كل سؤال جديد بجواب جديد ولكنه يتبع جوابه بالقول: "اللـه أعلم"... فيشعر محمود بالضياع لهذا الجواب وبأنه هالك في هذه الدنيا لا محالة، إلى أن أوصلته الكتب أخيراً إلى أبي العلاء المعري، شبيهه في كل شيء.. في عماه وفي صباه وفي شكه وفي إيمانه، فازداد اضطرابه وتبلبلت أفكاره مع الذي ذهب منه الزيغ أي مذهب فقال معذّباً: ونهيت عن قتل النفوس تعمداً وبعثت لقتلـها ملكـان وزعمت أن لنا معاداً ثانياً ما كان أغنانا عن الحالين.

معذباً مثله.. عذبتْه المحابس الثلاثة، غربته والعمى وجسده الذي احتجز روحه فمنعها من الانطلاق.. فمضت به أصفار وأرجاب لا

يعرف مثله من الألوان سوى الحمرة، ولا يهدأ له بال في التفكر بأسرار هذه الخليقة وعجائب مصيرها الحتمي. معذباً مثله.. رأى العدم طريقاً للخلاص، ووجد فيه خيراً وفي النسل جريمة وجناية، فقرر أن يرحم غيره من هذا العذاب وأن لا يتزوج، وطلب أن يُكتب على شاهدة قبره بعد أن يموت "هذا ما جناه عليّ أبي ولم أجنِ على أحد".

في تلك اللحظة القاتمة، أدركه شيخه عبد الرحمن فقال له "قتل الانسان ما أكفره".. أعطاه الـلـه كل هذه النعم والنفائس ولكنه لا يفتأ يتساءل عن ماهو فوق احتماله وأبعد من قدرته. إن قدراتنا العقلية يا ولدي أقصر من أن تعرف شيئاً، بقياساتها المتناهية، عن أشياء لا متناهية.. وأن لا أحد من الفلاسفة وعلماء الفيزياء وما وراء الفيزياء، من الذين أفنوا مئات الأعمار والأفكار في سبيل ذلك، قد تمكن من معرفة الحقيقة حول تلك الأسئلة التي تراودك وتشغل بالك. فامتثلْ، يا ابني، لأداء الواجب، ولا تشغل بالك بغير ذلك. أما سمعتَ ما قاله معشوقك أبو العلاء المعري:

زعم المنجّـــم والطبيـــب أن لا حســاب فقــلت ذاك إليــكمــا
إن صـح قولكما فلســـت بخاسرٍ أو صــح قــولي فــالوبال عليـكما

وكانت تلك راحته المنشودة العميقة، التي ما فادت في البداية في تهدئة ظنونه وانقضاء حيرته، ثم انقلب إليها مضطراً ثم مختاراً وقال كفى... وظن أخيراً أنه قد وجد سعادته في الامتثال لشيخه

عبد الرحمن في قهر نوبات الوساوس والظنون، والالتفات إلى الواجب للحصول على السعادة.. أصبح يخجل من أن لا يؤدي الواجب.. فقد قال له شيخه عبد الرحمن إن الرجل هو الواجب، والانسان هو الواجب، ولا شيء هناك غير الواجب والإكثار من الزاد للسفر البعيد... هكذا كان يفكر وهو يجلس، في ذروة سعادته تلك، في الحافلة، وفي حضنه البيضة والشبكة ودفتر الألوان، ولكنه داخ فجأة وتغوش نظره بخيوط ممتدة تشبه تلك الخيوط الشفافة التي رآها في محل الألعاب تتدلى منها لعبة السمكات فوق مهد الطفل الرضيع ، شعر بأنه محاصر والتفت يبحث عن مخرج. قال لنفسه: "هل أن صورة تلك الخيوط قد انطبعت في عينيه، أم أنه قد نظر كثيراً إلى الناس يهيمون على وجوههم؟ فأصبحت حركتهم تشوش عينيه؟ إنهم يتحركون كثيراً.. حركاتهم وإيماءتهم كثيرة.. تتكون بسرعة ثم تتلاشى. ولا يستطيع اللحاق بها وكأنها تنتهي قبل أن تبدأ فلا شيء مما يفعلونه يبدأ إلا لينتهي وينمحي؟ تُرى هل كنت هائماً مثلهم وأنا أعمى؟.. وهل أنا الآن كذلك، وقد أبصرت؟ ثم ما بال هذه الحافلة التي توقفت فجأة؟"... تتراجع الآن إلى الوراء وهي تسير الى أمام.. استغرب محمود رجوعها إلى الوراء، وقال لنفسه: "كيف تعود إلى الوراء وطابور السيارات خلفها كله متوقف؟"

للمرة الأولى يكتشف أنه عندما يرى، فإن إحساسه يمكن أن

يوهمه، كما يوهمه الآن، بأن الحافلة كانت ترجع إلى الخلف في الوقت الذي كانت فيه متوقفة عن السير بينما طابور السيارات الذي على يمينها هو الذي يسير إلى الأمام.

عندما وصل إلى البيت.. وجد التوأم يلعبان قرب البيت، فقال لنفسه: "هذه هي إذن أم هند.. وهذا هو بيت هند".. وهذه هي عمته التي كانت تجلس بانتظاره تحت الشمس على دكة بالحديقة.. قالت له:

- تأخرتَ.. أتيتك بالغداء.. وآذان الظهر قد أذن منذ وقت طويل.

7

الملاك والإنسان

تحت الشمس، كانت عمته، التي أورثته عشق آذان الظهر، تجلس قرب حوض من الحديقة مزروع بالنعناع والريحان. لحظات الطمأنينة، التي كانت قد غادرته وهو في الحافلة، عادت اليه فجأة، فقال محمود لنفسه، في تلك اللحظة المشرقة، "إن سلطان الحياة أقوى وأجمل وأثمن من أن يُهدَر بأفكار سوداء لا تؤدي إلى مثابة". سمع عمته تقول، وقد بدا عليها أنها لا تنوي فعل شيء غير ذلك الجلوس تحت الشمس:

- ما هذا الذي في يدك؟ لمن هذه الألعاب؟

ثم مدت يدها، فتحركت ورود كثيرة الألوان على ثوبها الغامق الذي خمن أنه النيلي. ناولها بيضة الكتكوت فأدارت مفتاحها على الفور وقالت:

- أذهبت وحدك إلى السوق؟ لماذا لم تخبرني لأطلب من السائق أن يأتي ليصطحبك؟

بدأ الكتكوت يصوصئ وهو يخرج رأسه من البيضة، فقالت العمة كمن تذكر فجأة:

- اتصل عصام وقال إن الفرقة ستذهب لتسجيل نشيد جديد في موقع تصوير خارجي ويريدونك أن تذهب إليهم يوم غد . ولكن ما هو النشيد الذي تسجلونه؟

قال محمود وأنظاره معلقة بالكتكوت الصغير ذي الوبر الأصفر الناعم:

- إنه (عائد طير الحمام) لفرقة الأنوار الجزائرية.. نشيد يتغنى بحب الوطن، أعتقد أنه للشاعر عبد الحميد باديس، شاعر النهضة العربية والزعيم الروحي لحزب التحرير أثناء الإستعمار الفرنسي للجزائر، وقد غنوه في بلدهم لتهدئة الأوضاع أيام الوئام الوطني. أتعلمين أن شركة للفن عرضت على فرقتنا عرضاً خاصاً بنا لتسجيل هذا النشيد.. ولكن عندما ذهب مدير الفرقة إلى جهة الإنتاج عاد وقال لنا: "لا تنساقوا وراء الأوهام لأن المنتج يريد تصوير الكليب بمناظر غير مناسبة وفتيات يرتدين ملابس غير لائقة".

قالت العمة:

- فهل رفضتَ؟

قال محمود:

- كلا لم أرفض.. سأرى بنفسي أولاً، ولكن ما هو اليوم، يا عمتي؟

قالت عمته:

- إنه السبت.

تطايرت أمامه العصافير، بينما عمته منحنية على حوض الخضار تقطع منه سيقان الخضرة التي تجمعت في يدها على

شكل باقة. وقف أحد العصافير على مكان في السطح، هو نفسه الذي سقط منه محمود عندما كان صغيراً وكان يبدو أقل علواً مما يتذكر، فقال:

- عمتي، لقد حلمت بالببغاء مرة أخرى.. الببغاء الذي جاء به أبي من سفرته إلى تركيا.

قال وهي تواصل عملها:

- وماذا حلمت؟

قال:

- كان يحدثني وينادني باسمي ثم وجدتُ نفسي أطارده من مكان إلى آخر، فأسقط من السطح.

قالت:

- عجباً! كأنه قد حدث البارحة رغم أنه مرت عليه سنين وعامات وكان عمرك ست سنوات عندما حدث؟

وراحت تستعيد مع نفسها ذلك الحدث القديم كما يطيب لها أن تفعل دائماً:

- كنا نتوقع أن يعود إليك بصرك في أية لحظة بعد سقوطك من السطح، لأنك لم تولد بهذه العاهة أو ترِثها من أحد.. إنما السقطة التي حدثت هي التي تسببت بها. وتريد الصدق فإن والدك يحبك جداً، وقد أمضى سنوات من عمره وهو يدور بك على الأطباء والمستشفيات ثم كفّ عن ذلك، عندما قال له الأطباء في مثل هذه الحالة قد يعود بصرك فجأة مثلما

ذهب فجأة، فأصبح وهو ينتظر حدوث ذلك متآلفاً مع الوضع.. وعادت ريمة إلى عادتها القديمة، وها أنت تراه يركض وراء النسوان ويتزوج هذه أو تلك، وكل يوم هزّي تمر يا نخلة. ولكن أين هو؟ منذ أيام وأنا لا أراه.

قال محمود:

- لا تخافي عليه. سيظهر فجأة كالجن.

قالت:

- لا أدري كيف أنجبَ هذا الجني ملاكاً مثلك؟.. وهو، بدلاً من أن يبحث لك عن زوجة، يفكر كل يوم بزواج جديد. أهن أربع من تزوجهن لحد الآن، بعد أمك رحمها اللـه؟

كانت تتحدث إلى نفسها أكثر مما تتحدث إلى محمود.. بل إنها، وهي تهز إضمامة الخضار تحت ماء الحنفية المنهمر، بدت وكأنها لا تنتظر رداً منه:

- أتصدقين بأني لا أعرف، ولم ألتق بواحدة منهن أبداً؟

مرة أخرى قالت وكأنها تواصل حديثها إلى باقة الخضار التي تضعها تحت الماء المنهمر وتهزها بعصبية شديدة جعلت محمود يضحك، وهو يتابعها تقول:

- هذا الرجل، وإن كان أخي، لا يشبهني أبداً. تعلمْ أن أمنا ماتت ونحن صغار، وقد أرضعتنا أختنا الكبرى التي كانت قد ولدت ابنها رافع للتو، فأصبحنا أخوتها وأبناءها في الوقت ذاته، ولكنه يشبه العصا العوجاء في هذه العائلة، له نزواته

وجفواته وحياته التي لا تشبه أي حياة. لقد منعك من أن تأتي لتعيش معي لكي لا يضطر إلى المجيء إلى بيتنا باستمرار وسماع الكلام الذي لا يعجبه مني.

يذكر محمود أول مرة أنزلت فيها عمته اللعنات على أبيه عندما جاءها محمود وهو يكاد يتقيأ بعد أن شرب جرعة ماء من قدح موضوع على حوض المطبخ فلما عرفت أن ذلك القدح مليء بالعرق أطلقت العنان للسانها بكل أنواع الدعاء والسباب على أخيها. قاطع محمود تلك الأفكار بأنه كان قد شرب من القدح الخطأ لأنه هو الأعمى وليس أباه.ثم قال:

- أنا بار به حتى وإن تصرّف بغرابة، كما تقولين، ولا أريد أن أحاسبه على شيء. إنه يتركني لشؤوني الخاصة وينصرف هو لشؤونه الخاصة، لكي يجعلني لا أعتمد على غيري أو أتصرف كأعمى. ألا يقول الحديث النبوي لاعبْه سبعاً وأدّبْه سبعاً وصاحبْه سبعاً، ثم اترك له الحبل على الغارب.

توقف الماء عن الجريان، وراحت العمة تهز باقة الخضرة بنفس العصبية في الهواء لتنفضها من الماء، ثم سمعها محمود تقول وهي ترفع مذياعها من عن الأرض:

- هيا محمود، أسخّن لك الغداء. لا بد أنك جائع الآن.

قال:

- سأصلي الظهر أولاً. ولكن لماذا مذياعك صامت؟

قالت:

- أحياناً لا أستطيع أن استمتع بشيئين في آن واحد. أما الشمس أو الراديو.

ضحكتْ ضحكتها الساخرة من نفسها والتي تعبر عن الضحك بأحسن ما يكون، وقالت:

- عندما كنت صغيرة، كنت أدخل الحمام ومعي الراديو.. فأظل أغني طوال فترة الاستحمام. أما الآن فلا أفعل ذلك.. يبدو أن الإنسان عندما يكبر يقتصد في كل شيء.. حتى في الاستمتاع.

حل صمت وجيز، ثم قالت:

- ولكن كيف عرفت أن الراديو موجود هنا.

8

النار والدخان

هناك تحت الشمس التي تركتها العمة في الحديقة وذهبتْ، جلس يتناول غداءه بنهم ويلتقط بأصابعه ثمرات الفلفل والباذنجان التي حشّتها عمته بالرز ويقلّبها أمام عينيه قبل أن يضعها في فمه لكي تذوب هناك. النمل الزاحف من تحت قدميه كان يسير بخط غير منتظم لينقل ذرات من الخبز اليابس موجودة بين الحشائش، ثم يتسلق بلاطات الممر ويسير، إلى شق محفور في نهاية الحائط ليحفظها هناك. إنها تذكره بما قاله لهم أستاذه البير ذات يوم: لنتعلم من النملة.. إنها تسمع بأقدامها وإنها لا تبحث عن المداخل بل تصنعها. أليس الأمر كذلك بالنسبة له، إذ كان يرى بيديه بدلاً من أن يسمع بأقدامه؟ ويصنع لنفسه المداخل بدلاً أن يبحث عنها... كيف سيحذر من الآن فصاعداً أن يدوسها ويتسبب في خراب هذه المسيرة العظيمة نحو البقاء؟ وكم من آلاف تُفنى لكي ينجو منها واحد فقط؟

قبل ثلاثة أيام، لم يكن يعرف بذلك كله. مع ذلك كانت الحياة تمضي في طريقها غير آبهة بشيء.. وسرعان ما شغله الطعام عن هذه الأفكار. نهض بعد ذلك وتوجه إلى المطبخ ليضع الماء على النار ويعد لنفسه كوب الشاي الذي يتصاعد منه البخار بعد الغليان فيضع أصابعه قريباً من ذلك البخار المتصاعد منه، وهو لا يبتسم،

بل وهو يفكر هذه المرة بأنه نسي أن ينتبه لخطواته مع النمل. استدار صوب النافذة لينقل إبريق الشاي من النار إلى المنضدة ثم يصبه في الكوب الذي وضع فيه السكر.. توقفت يداه عندما سمع وقت خطوات أبيه على بلاطات المرآب القريب من المطبخ، ثم جفل وارتدّ سريعاً ومضى منزوياً إلى غرفته وهو يراجع نفسه كيف سيتصرف؟ وماذا سيقول عندما يرى أباه للمرة الأولى.

ارتجف قلبه وشعر بالإحساس نفسه الذي راوده قبل أن يرى عمته للمرة الأولى، إحساس من يصعد دولاب هواء للمرة الأولى.. فيهوي من غرفته بدلاً من أن يخرج منها، شاعراً بأنه لا يمكن لشيء أن يخفي ارتباكه. كان وهو يمشي ويتقدم باتجاه باب البيت يفقد خطوات أبيه ويصعب عليه تمييز الاتجاه الذي تسير فيه، فاستغرب أنْ لم يعد يسمعها! فأين يمكن أن يكون قد ذهب؟دوى صوت انفجار قوي في مكان قريب فجعله ذلك يضطرب وازداد قلبه ارتجافاً ورهبةً.

عندما توقف أخيراً عند إطار الباب الداخلية للبيت لم يكن أبوه هناك، بل وجد قرب سياج الحديقة العالي رجلاً يقف تحت شجرة الزيتون ويوشك على احتضان امرأة ترتدي فستانا أحمر، واقفة بينه وبين السياج. دفعت تلك المرأة، التي لم ير وجهها جيداً، ذلك الرجل فجأة وأبعدته عنها لأنها على الأرجح لاحظت وجود ابنه واقفاً قرب الباب المطلة على الحديقة. عندئذٍ التفت الرجل الواقف بقربها إلى حيث يقف هو، فعرف محمود على الفور أن هذا الرجل هو أبوه.

لأول مرة يرى وجه أبيه.. وجه الرجل الذي هو أبيه، فابتسم إليه دون أن يلحظ الأب ذلك، وكأنه يريد أن ينهي شيئاً كان قد بدأه قبل قليل. ولأول مرة يعرف محمود أن أباه الذي ظنه قريباً من عمته في السن، هو أصغر منها بكثير، بل أكثر وسامة وأناقة وترفاً. وهذا هو ما بدا له من ذلك الوجه الذي انطبع في ذهنه فور أن وقع نظره عليه.. ولكن ما لم يصدقه أبداً أنه سيراه لأول مرة بعد عماه وهو غارق في مثل هذا الموقف الغريب، وأن هذا الأب سيلتفت عنه، بعد أن يراه ، ويواصل تودده إلى تلك المرأة التي كانت ترتدي فستاناً أحمر وتحاول التملص منه على عجل.

شعر محمود بالهوان الشديد وهو واقف في مكانه متظاهراً بالعمى، وأبوه، الواقف بصعوبة تحت شجرة الزيتون، يريد أن يخطف قبلة أخيرة من تلك المرأة الشنيعة وهو يمد يده تحت ثوبها... يفعل ذلك أمام ابنه، الذي توقع أو توهم، تلك اللحظة المرتقبة من اللقاء، بأن أباه هو الآخر سيراه للمرة الأولى.

تساءل مع نفسه "أية صورة هذه التي يرى فيها أباه للمرة الأولى؟ وأية امرأة تلك التي تسمح له بكل هذا العناق وقلة الاحترام؟ وهل كان أبوه يفعل ذلك معها أو مع غيرها طيلة الوقت داخل البيت أو خارجه والابن لا يعلم؟"

مرة أخرى عاد محمود مهموماً غارقاً بصمته وهو جالس على الأريكة، غير مبال بدوي انفجار آخر اهتز له صحن الفاكهة الموضوع قرب النافذة... بعده على الفور دخل أبوه بيته الثاني وفوق

شعر رأسه تتناثر أوراق زيتون يابسة أشعره منظرها بالضيق والاشمئزاز، فلم يُبدِ أية رغبة بالترحيب به أو السلام عليه. وكأن الوالد شعر بإحساس ابنه ينتقل إليه، فقال مدفوعاً بالذنب:

- كنت أناول زوجتي مقص الحديقة. إنها تسكن في الفرع الذي خلفنا.. ولكن ما بك؟

لم يشعر محمود بالرغبة في الرد عليه او الاستغراب من زوجة جديدة يعرف مكان سكنها للتو، وربما بانت عليه علامات القرف والاشمئزاز، فارتبك الأب وقال:

- هل أنت على ما يرام؟

قال محمود:

- نعم.

قال الأب الشاحب:

- إذن لماذا عندما دخلتُ لم ترحب بي.. لم أرك منذ أيام.

ضاق الابن بأفكار أبيه وتوقعاته عن الترحيب به أثناء اللقاء، لأن العناق أو التقبيل هو آخر ما كان يفكر فيه محمود تلك اللحظة، وانتزاع نفسه من ذلك المكان ثم الذهاب إلى غرفته وادعاء الرغبة في النوم هو أقصى ما كان يـتمناه. ولكن أبـاه اعترض أفكاره وقال:

- هل تغديت؟

قال محمود:

- نعم.

قال الأب:

- إذن، سنتعشى معاً. عنّ على بالي في هذا الجو الربيعي الجميل أن أشوي الكباب على المنقل. ما رأيك؟

قال محمود، وهو ينهض من مكانه.

- كما تشاء.

تحت سقف الغرفة أخذته إغفاءة قصيرة أعادت إليه أحلام الكائنات المرعبة التي ما فتئ يراها منذ أن أبصر وغادر عماه قبل يومين.. فحلم أن ثمة أفعى عملاقة تتسلق على سياج الحديقة لتدخل بيتهم، وأنه يمسك مقص العشب في يده ليقطع رأسها، ولكن دون أن يستطيع ذلك، لأن المقص تضاءل عن حجمه الطبيعي وبدا صغيراً جداً قياساً إلى حجم الأفعى. كل الصور، التي شاهدها في التلفزيون على مدار يومين كاملين، تعملقت في الحلم وتحولت إلى أشكال أخرى تتحرك بغير طبائعها فتغوّلَ حجم السلاحف والثعابين، ومشت كالأوزاغ فوق سقف غرفته، وتضاعف حجم السيارات التي رآها، وأصبحت تطير في السماء مثل الطيور، كما جاءته عمته بدفاتر الامتحان بدلاً من صينية الطعام، ورأى أباه وهو يؤذن في الجامع بدلاً من المؤذن، والمؤذن يقود شاحنة البضائع بدلاً من أبي هند.. جعله ذلك ينام نوماً متقطعاً ويفز بين حلم وآخر لحين استيقظ في نهاية المطاف وهو يجد نفسه منهكاً وغارقاً في العرق مع تلك الأحلام التي يراها في منامه للمرة الأولى في حياته. سمع أيضاً أصواتاً كان يسمعها في الحلم وهو أعمى.. أصوات

العصافير وقت الغروب عندما تتجمع بأعداد هائلة داخل أغصان شجرة التوت العملاقة..
وسمع أصوات رجال يتحدثون ويقول أحدهم للآخر:
- هذا رجل سيء.
- وهذه امرأة سيئة.
ظن محمود أنه نام دقائق معدودة.. وأهلت في نومه رائحة النفط والجمر الملتهب فنودي للطعام من جديد، وتباهت الحياة مرة أخرى بهذا الاشتعال ونفشت ريشها الجميل داخل رأسه حتى ملأته بالأشواق والغفلة ثم أقامته من نومته اللذيذة التي امتدت ساعات إلى حيث كان يجلس أبوه أمام فحم مشتعل والمروحة تدور أمامه وتكنس النار إلى اتجاه واحد تتراقص فيه ذيول دخان أسود والسنة لهب صفراء وبرتقالية.
النار والدخان.. هذان هما إذن ما كان يشعّ البهجة والدفء في حياته أيام الشتاء فيملئ ظلمة روحه بالنور الذي لم يعرفه صغيراً وهو أعمى كما يعرفه الآن وهو يرى. الشمس التي كانت تغمره بنورها كل يوم، يشاهدها الآن وهي تغيب في لجة الكون العظيم، وبما يتبقى في ضوئها، تتلوّن غيوم السماء بدرجات من اللونين الأسود والإرجواني، تتوهج وتخبو مثلما قطعُ الجمر التي يحركها أبوه بالملقط داخل المنقلة.
قطع ذلك المشهدَ العظيمَ أمام عينيه أثرٌ ضعيفٌ لخيط من دخان أبيض تتركه خلفها طائرة تمضي في السماء، فقارن محمود ذلك

الخيط الأبيض الرقيق مع منظر الشمس وهي تجري إلى مستقر المغيب.. قال لنفسه "كم ضئيل إذن هو عمل الإنسان قياساً إلى عمل الخالق.. وكيف بعد ذلك تضج المخلوقات في هذه الدنيا تارة بالخير وتارة بالشر بدلاً من الانقطاع إلى تأمل هذا الكون العجيب؟". تلك النقائض بين تلك الخلائق العجيبة، وجدها ممكنة الحدوث. أما جمع النقيضين في شئ واحد فما أصعب حدوثه، كبعض البشر، كذاك السحاب به ماء وبه نار، وهذا الشجر الأخضر يمنح الظل البارد او يتحول إلى نار مشتعلة.

كان قد نوى أن يفاجئ أباه أول ما يلتقيه فيخبره بأنه قد استعاد بصره فجأة قبل يومين عندما كان يتوضأ لصلاة الفجر يوم الخميس ولكن منظر أبيه وهو يحتضن تلك المرأة في الحديقة أفقده الرغبة في فعل ذلك. اقترب أكثر من المنقل. شعر أبوه بوقوفه خلفه فقال له:

- حاذر من الكرسي المكسور.

قال محمود:

- أعلم أنه مكسور.. سأجلس على الأرض.

قال الأب:

- تعال واجلس بقربي.

كان الأب يحرك الجمرات بالملقط أمام المروحة، فتتطاير الشرارات وتطقطق بصوتها الأليف الذي يسمعه محمود الآن كما

كان يسمعه وهو صغير، فقال الأب ليعيد البهجة إلى الجو الذي كان قد توتر:
- جلبت لك حبات الكستناء التي تحبها.. هيا ضعها في قلب النار.
الامتنان الذي شعر به محمود لأبيه، تلك اللحظة، كاد أن ينسيه ما فعله مع تلك المرأة قبل ساعات في هذا المكان.. ولكن شجرة الزيتون سرعان ما أعادت مشاعره إلى حالتها الأولى ، فقال لأبيه وهو ينظر إليه دون أن يدري:
- أبي، لماذا لا تصلي؟
رفع الأب نظره إلى محمود، ثم ابتسم ابتسامة يراها الابن للمرة الأولى وتكاد تذله لأنه لا يعرف معنى لها.. ابتسامة صماء ليس فيها الفرح أو الزهو.. وليس فيها اليأس أو اللامبالاة.. إنما هي تعبير غريب حاول الابن أن يعرف معناه بالضبط ولكنه لم يستطع.
- جربت الصلاة ذات يوم ثم ضقت بها ثم تركتها.
- لا أريدك أن تذهب إلى النار يا أبي.
صمت الأب ثم قال وهو ينظر إلى عيني ابنه دون أن يدري أنهما يران بعضهما البعض:
- أين صورتك في حفل دارالأوبرا بمصر ..أريد أخذها الى النجار ليضعها في إطار.
انعكاسات الضوء في العيون هي أيضاً مما يصعب على محمود

البت فيه ولا زال يهرب منها واضعاً عينيه في الفراغ عندما يتكلم... ولكن لمسة أبيه تلك بتأطير صورة لن يراها كأنما فركت أوراق ورد ميتة، فزاد عطرها وفاح وتصاعد من جديد، لتعود إليه مشاعره تجاه أبيه كاملة غير منقوصة وإنْ كان يشوب طعمها بعض المرارة... لا يصدق كيف أن أباه الذي أبداً ما تحدث عنه وكأنه غائب عن المكان ونادراً ما عامله كأعمى، قد أهان عاهته قبل ساعات ، عندما كان يقف بلاصواب مع تلك المرأة تحت شجرة الزيتون.

9

الذكر والأنثى

مرة أخرى تعمّد أن يتزامن خروجه من البيت مع آخر ما يتبقى من دقائق الانتظار التي تقفها هند بباب البيت وأحياناً عند رأس الشارع مع باقي البنات بانتظار أن تأتي سيارة الخط لأخذهن إلى الجامعة.

لم يتبق أمامها الكثير لتبدأ عطلة الأيام التي تقطعها بالقراءة والاستعداد للامتحانات النهائية. سيكون من حسن حظه أن تأتي إليه هند في يوم من هذه الأيام كما كانت تفعل في عطلة الأربعين يوماً من امتحانات البكالوريا قبل عام، لتطلب منه أن يكتب لها إنشاءً معهوداً عن الأخلاق والأمم وتقترح عليه موضوعات تتشابه كل امتحان، عن الصدق والكذب، والفضيلة والرذيلة، وعن المعلم والوطن.. فيخادعها بأن يتلو عليها أولاً قصائد في حبها، ثم يقول لها قصائد عن حب الوطن :

اليوم ما للقمر يأفل من سمائي
والحزن يفقد ألفته الأنيسة
فيصير الكون
دقة نبض رتيبة
لحظة سأم رهيبة
يا من صيّرتِ العمر لحظة
هي زمني حين أراك

يتخيل أنها تحمر خجلاً بعد إنصاتها للقصيدة فينتقل ارتباكها إليه وينتشي ويدور رأسه ويتجرأ على القول:

- أنت سمراء.. أليس كذلك يا هند؟

وتصمت قليلاً ثم تقول:

-لا أعرف.

- وشعرك طويل جداً، وتجدلينه بضفيرة واحدة فوق ظهرك؟.

- نعم.

- أنا أحبك.

- وأنا أيضاً.

ولحسن حظه وعادة الخط الذي تأخر، فقد لمحتْه خارجاً من البيت وراحت تنظر إليه وهي تظن أنه لا يراها. وجهها كان بظّاً مدوراً وعيناها واسعتان جداً، ولكن بشرتها ناصعة البياض وليست سمراء كما اعتاد أن يتخيلها دائماً. هي فتاة تلك الأحلام بلا منازع وأول نافذة للحب انفتحت على سنوات مراهقته قبل أن يدخل إلى الكلية وينتقل قليلاً من سجن عماه إلى الحرية، فيلتقي كثيراً من البنات غيرها، لم يدخلن قلبه الذي ظل معلقاً بهواها. حين رآها تباطأ في مشيه لكي ينصت إليها بإمعان، ويبتسم لها فتبتسم له دون أن تظهر استغرابها بأنه يقصدها بتلك الابتسامة، وكأن إحساسه الفائق بوجودها أمر طبيعي على ما بينهما من حب خفي ومشاعر طالما ملأت قلبه بالرضا والسعادة.

بعد الذهاب إلى السوق قاصداً محل الألعاب، شعر بأن وجهته التالية يجب أن تكون، في اليوم التالي، بيت شيخه عبد الرحمن،

والذي كان يقع خلف الجامع الذي يؤمه للصلاة ولا يبعد عن بيته سوى دقائق قليلة. استغرب منظر البيت عندما وصل إليه.. كان مهجوراً ومهملاً وحديقته غارقة بالأوراق اليابسة.. نوافذه المغلقة بإحكام بدت وكأنها لم تفتح منذ وقت طويل. سمعه الجار، الذي كان يقف في باب بيته وظل واقفاً هناك منذ أن رأى محمود يطرق باب جاره الشيخ، فرد عليه قائلاً بأن الشيخ عبد الرحمن موجود في دار المسنين، ثم دله على مكانها بتفصيل شديد، بعد أن قال له بتأثر:

- أنت تعلم ماذا حدث لأولاده؟

قال محمود:

- نعم أعلم.

أراد الذهاب إلى دار المسنين التي دله الرجل على مكانها، لرؤية شيخه عبد الرحمن.. فهناك فقط سيتحول سكوت محمود إلى فضاء مسحور تملؤه النجوم التي لا يحجبها شئ سوى كلل لسانه أو تعب الشيخ من كثرة الكلام. ولكن اليوم هو الأحد، وسائق الخط سيمر عليه بعد قليل ليأخذه إلى موقع تصوير خارجي، قال عنه عصام إنهم سيصورون فيه أغنية عن الوطن. من المؤكد، قال لنفسه، أنه سيرى هناك البنات الجميلات اللواتي قال عنهن عصام إنهن سيظهرن مع فرقة الإنشاد أثناء الغناء.. جعله ذلك يسلو ويغفل قليلاً عما سمعه عن مآل شيخه عبد الرحمن. فلما جاءه السائق الذي يراه أول مرة، وجد الحافلة فارغة إلا منه.. كان وجه السائق غليظاً مزعجاً وفي جبهته طرة متورمة وفاحمة السواد..

عيناه تعكسان شيئاً مخيفاً وعلى وجهه تعبير مختلف عن تعابير وجوه من نظر إليهم لحد الآن.. هل هو تعبير العيون أم الأفواه الذي يحدد ما يرتاح اليه محمود أو لا يرتاح؟ تعبير يجد صعوبة في فهمه، صعوبة مضافة إلى الحيرة التي يعانيها أثناء التعرف على المعاني التي تنطق بها وجوه الناس.

كان موقع التصوير حديقة فندق غناء تطل على نهر دجلة، جميلة ومختلفة عما يحيط بها من خراب الشوارع والمباني ... هي جنة أخرى مضمومة خلف باب رث ومتداع.ما أن دخل سائق الخط إليها حتى رأى محمود من مكانه في الحافلة رجلاً كان يرتدي قميصاً بمربعات عرف فور أن رآه أنه عصام الذي صاح وهو يمد يده ليساعده على النزول من الحافلة:

- هل جئت يا محمود؟.. لقد أُلغي التصوير ولم أستطع إبلاغك.. فهيا نرجع سوياً.

قال محمود ونظره يسبح بحذر في الوجوه التي تنبث من حوله دون أن يعرفها.. لا يدري لماذا وحده التعرف على وجه عصام كان أمراً مبتوتاً فيه :

- ولماذا أُلغي؟

قال عصام بعصبية :

- مدير الفرقة وبعض الشباب رفض تصوير النشيد بوجود البنات.

قال محمود، وهو مطرق برأسه إلى الأرض ينظر إلى زهور صفراء صغيرة نبتت بين عشب الحديقة على شكل قوس:

- ولكن أولاء البنات لن يغنين معنا، أليس كذلك؟

قال عصام:

- لا أدري.. سيظهرن فقط وبشكل لائق.. أن النشيد وطني وليس دينياً يامحمود؟ فهل أصبحت تفكر كالميليشيات التي تفجَر محلات الأشرطة وتُرهب البنات الصغيرات لارتداء الحجاب.

قال محمود واضعا نظره في وجه عصام:

- بالصدفة سمعت يوم أمس في إذاعة مونت كارلو منشداً من فرقة إنشاد حلبية اسمها (الزاوية الهلالية)، أقام حفلة في باريس، يسأله المذيع هل يجوز للمرأة أن تنشد؟ فقال كلا لأن صوتها يثير الفتنة.

قال عصام بضيق:

- لم نعد نعرف الصحيح من الخطأ، يقيمون حفلاتهم في باريس ثم يقولون إن صوت المرأة فتنة. هل تعرف أن سامي يوسف لم يمنح جائزة في الإنشاد لأن الموسيقى ترافقه في الأداء، بدعوى أن على المنشد، إذا أخذ بفتوى جواز الموسيقى، أن يكتفي بالدف.

كان وجه عصام متورداً كشجرة المشمش صاخباً محتفلاً بالحياة. قال محمود:

- تريد الحق ياعصام؟ هكذا هو الإنشاد الحق.. بدون آلات موسيقية.. وبدون صوت نسائي. مع ذلك فإن الجمهور

يتحرك ويتمايل ويطرب ويبلغ حالة من النشوة الروحية التي تجعله في حالة صفاء ونقاء وصلح مع نفسه والعالم.. وهذا ما تفعله الأصوات العظيمة للشيخ أمام وصبري المدلل وسيد النقشبندي.. أصواتهم تجعلك تلامس السحاب.

قال عصام:

- ما بك يا محمود؟.. هل أنت رجل دين؟

تفاجأ محمود، ثم قال بضيق وهو يرفع يديه إلى نظارته:

- كلا.

- إذن لماذا تتصرف كرجل دين.. دعنا من الخلاف الفقهي حول الغناء والإنشاد، فهذا لن ينتهي، فالإذاعة نفسها كانت بدعة من البدع ذات يوم، والشيخ إمام في فتوّته فُصل من الجمعية الشرعية لضبطه وهو يستمع إلى الإذاعة.

صمت الاثنان وقتاً وجيزاً قال بعده محمود وهو يتناول قرصاً مدمجاً من صاحبه:

- هل هو لسامي يوسف؟

قال عصام:

- كلا، إنه لموزارت.

قال محمود وهو يتحسس القرص بأصابعه:

- أنا لا أتصرف كرجل دين.. ولكن شيخي عبد الرحمن يقول إن غناء المرأة حرام.

- شيخك هذا سيلف حول بطنك حزاماً ناسفاً ذات يوم يا محمود.
- ليس هذا الشيخ ممن يفعلون ذلك..
- لا تتبعه يا محمود كالأعمى..
بحرج كبير لطم عصام على جبهته وقال:
- آسف يا محمود، لم أقصد سوءاً.. ولكن أرجوك لا تتردد على الجامع هذه الأيام، فالوضع خطير.
ابتسم محمود بفم ملتوٍ وقال:
- لا أظنهم سيقتلون رجلاً أعمى.
- بل يقتلون العامي والشامي. وحمداً لله أنك لا تحمل اسم عمر أو علي.
- أعلم ذلك.. في كل الأحوال، أنا لم أعد أتردد على الجامع منذ شهور، وشيخي الآن موجود في دار المسنين.
- ألا يمكن لأولئك الشيوخ الجمع بين الأصل والعصر، كما كان يفعل سيد مكاوي عندما كان يحتضن عوده ويغني (الأرض بتتكلم عربي) فترى أنه يتجلى، وأنت تعلم أنه كان قبل ذلك مقرئاً للقرآن.
صمت محمود ولم يرد، فقال عصام:
- هذا ما يجب أن تفعله الأصوات العظيمة في كل زمان.
ثم دعاه إلى صعود الحافلة، ودعا البنات، اللواتي كُنّ ينتظرن على مصطبة بعيدة في الحديقة، للصعود إلى الحافلة بغية

إيصالهن إلى بيوتهن، فظل السائق محدقاً في مرآته إلى الخلف.. وعاد محمود إلى عماه من شدة ارتباكه، وغشته موجة من العرق، سالت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه، ولم يعد عطر الياسمين الذي ملأ المكان كله يأتي من شيطان واحد، بل من خمسة شياطين صغيرة ترتدي قمصانا وردية وتجلس على المقاعد وتشعل فيه النيران. واحدة التفتت إليه وتهامست مع صاحبتها، فشعر بأن الهواء كله يمتلأ بالهمهمات. ولأنه كان يرى ما يحدث ولا يستطيع الهروب منه، فقد فتح زجاجة النافذة إلى أسفلها طلباً للهواء. سمعه هواء الربيع العليل، فهب وجفف له عرقه الغزير لكي لا يقضي في بحره غرقاً. مازحه عصام حول ذلك العطر المنتشر عندما جاء ليجلس بجانبه وقال له إن بنتاً تتلفت اليه وتمعن النظر فيه واسمها صبا.

الشيخ والتلميذ

كان الشيخ الجليل جالساً على حافة السرير تتطاير من فمه سوسنات التسبيح، وقدماه الباديتان من تحت دشداشته البيضاء تتدليان حافيتين ونظيفتين بقرب السرير الذي كان يبدو مرتفعاً جداً عن الأرض.

رفع الشيخ نظره إلى أعلى، ونهض فور أن رآه وأخذه بالأحضان، فصاح محمود وهو يمد يده إليه:

- حاذر أن تسقط! .. ما أعلى هذا السرير!

تراجع الشيخ وارتد من أثر المفاجأة، ثم احتضنه مرة أخرى، وقال وهو يضج بالصياح:

- أنت تراني يا محمود. أليس كذلك؟

ثم كرر وهو يضحك:

- أليس كذلك؟

استغرب محمود كيف أن الشيخ استوعب الأمر فوراً وكأنه كان يتوقع ذلك فابتسم وقال:

- بلى.

قال الشيخ وكلماته تسبق أنفاسه:

- الحمد لله.. الحمد لله. متى حدث ذلك؟

محمود، وهو يرفع النظارة الشمسية من عينيه، داخ قليلاً وتأخر في الرد:

- ثلاثة أيام.. قبل ثلاثة أيام.

قال الشيخ:

- تعال واجلس يا ولدي. كيف حدث ذلك؟

جلس محمود، ثم استرد أنفاسه مرة أخرى وقال:

- ثلاثة أيام ..حدث فجأة قبل ثلاثة أيام.. كنت أتوضأ لصلاة الفجر.. فرأيت صورة وجهي في المرآة وأنا أغسله بالماء.

قال شيخه:

- الحمد لله .. الحمد لله القادر على كل شيء.. هل راجعت الطبيب؟

قال محمود مرتاعاً:

- كلا.. كلا.. هذا ما لن أفعله مطلقاً.. فمن أبصر لنفسه ومن عمى فعليها.. هل تعلم أن أبي وعمتي لا يعلمان بذلك لحد الآن؟.. وأنت أول من يعلم.

ضحك الشيخ، وقال كمن يحدث نفسه:

- الحمد لله.. الحمد لله.. لا شيء بعيد عن قدرة الـلـه.

ثم جلس على سريره وأطفأ المذياع الذي كان يبث الأخبار بصوت خافت، وقال لمحمود وهو يدعوه مرة أخرى إلى الجلوس:

- ها؟ وكيف ترى الدنيا؟ أخبرني.

جلس محمود بعد أن جلس شيخه، ثم قال:

- أخبرْني أنت أولاً يا شيخي، لماذا أنت هنا؟

تجهم شيخه ثم استدارت الغرفة قليلاً بمحمود وتشوش وجه الشيخ وأخيراً سمعه محمود يقول:

-أجبرت أولادي على السفر بعد مقتل أخيهم، أنت تعلم ماذا حدث له؟

- نعم.. نعم. رحمة اللـه عليه.

عاد وجه الشيخ إلى مكانه، ثم سمعه محمود يقول:

- بعد سفرهم بثلاثة أشهر توفيت أمهم.. فوجدت نفسي وحيداً، وتعبت فقررت الانتقال إلى هنا دون أن أخبرهم بذلك.

- ألن تنتهي هذه المآسي؟

قال الشيخ:

- كلا يا ابني.. لن تنتهي هذه المآسي. هذا هو ديدن الغرب مع العرب. وهذه المنطقة لا كوارث تحدث فيها ولا زلازل ولا براكين.. ولكن مدن الأباعر التي تسف فيها الرمال تموج تحتها بحور من النفط.. والبشر فيها يختلفون.. عثمان ضد عباس.. وعباس ضد عثمان... وهم يؤججون هذا الاختلاف ولسان حالهم يقول: من هذا الاختلاف ننجو نحن، ولكن إذا

ما رفع أحدهم رأسه حاملاً السيف.. ضربوه على أمّ رأسه وذبحوه هم بالشوكة والسكين.

- قلت لي مرة إن أهل الشام كانوا يقرأون القرآن بقراءة أبي بن كعب، وأهل العراق يقرأون بقراءة عبد الـلـه بن مسعود، وحين التقوا فى المعارك اختلفوا وكادوا أن يقتتلوا وكفَر بعضهم بعضاً غيرةً على كتاب الـلـه.

ابتسم الشيخ وقال:

- فكيف إذا داس الفيل على الكتاب؟

مد الشيخ يده إلى درج قريب وأخرج منه علبة مطعمة بالعاج فقال محمود:

- ما هذا؟

- هذه علبة مطعمة بسن الفيل أهداها لي شيخ لاأعرف ديانته من الهند.أنظر كيف لاأفزع منها وإن كانت من هندوسي... وهاأنا أضع فيها مخطوطة انتهيت منها وأنا في هذه الدار. إنها عن إعراب القرآن .منذ خمسة عشر عاما وانا أعمل عليها وقد خططتها بالخط الكوفي وهو خط له سحر خاص في نفسي وقد قال رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم:" عليكم بحسن الخط فإنه من مفاتيح الرزق". ..يا محمود اعطيك هذه العلبة أمانة لكي تنشر الكتاب من بعدي لاني لم أعد اعرف الكثير عن أمور الطبع وماشاكلها.

صمت قليلا ثم قال الشيخ:

- أنا تعبان الآن. وهذه هي الحياة يا ولدي.. صعود ونزول، وبداية ونهاية. في أول شبابي كنت أُدعى كل شهر من أحد الزملاء الذي تخرجوا معي في الشريعة كي أحضر حفل زفافه إلى عروسه فكان لنا في كل يوم زفة أو حفلة عرس. والآن يشيعون كل يوم نزيلاً يخرج من هذه الدنيا إلى مثواه الأخير.. فنحضر الفاتحة والصلاة عليه.. ودائماً نقول الحمد لله على كل شيء.

أفكاره السوداء هبطت من رأسه إلى فمه دون أن يقصد فقال:

- أين المعنى في تلك النهاية بعد تلك البداية؟

كان شيخه عبد الرحمن يواصل كلامه دون توقف:

- ثمة صيدلاني مسيحي اسمه عبد النور، كنت أشتري منه الدواء أيام زمان، كانت له صيدلية جميلة وأنيقة وذات شهرة وصيت، وكان له شباب ووسامة وجاه ومال. ولكن يبدو أنه لم يرزق بأولاد.. أو ربما لم يتزوج أصلاً.. لأني قبل أيام قليلة اكتشفت، وبعد أخذ ورد وسؤال وجواب، أنه كان نزيلاً معي في هذه الدار.. لقد توفي يوم أمس.. فتخيل كيف جمعنا هذا المكان!

بدا الشيخ قد أكمل حكايته وارتاح منها، فأعاد محمود سؤالاً كان قد قاله بشكل خافت قبل قليل دون أن يكتمل:

- لم تخبرني يا شيخي أيهما الحق؟.. موته أم حياته؟

أجاب الشيخ وكأنه قد سمع السؤال وفطن إليه تواً:

- الاثنان يا ولدي.. الاثنان حق. ما دمت حياً فالحياة حقيقة يجب أن تعيشها وأن تجد السعادة في أداء واجباتها.. هكذا يأمرنا ديننا في عدم التهاون بأداء الواجب قائلا إذا جاءت الساعة وكان في يد أحدكم فسيلة نخل فليزرعها.. أما إذا جاء يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة..

قاطعه محمود، وقال ضاحكاً:

- دعنا في خصائص القبول وحسب. أما خصائص القبور فأنا مستعد لها مع المعري الذي قلت لي إنه يقول:

زعـم المنـجـم والطـبـيـب أن لاحسـاب فـقلت ذاك إليـكما

إن صح قولكما فلست بخاسر وإن صح قولي فالوبال عليكما

ضحك شيخه عبد الرحمن وقال:

- واسمع يا عاشق المعري هذه الحكاية عنه. إنه، رغم كل احتقاره للحياة وسخطه عليها، ارتعب ذات يوم عندما سقطت قطرة دبس على جُبّته.. ارتعب وجفل كالملسوع وفتش عن إبريق الماء حتى مسحها لكي لا يسخر منه الناس. فانظرْ إلى من يقول إن الموت والحياة سيّان، بل يعتبر الحياة جناية يجنيها الآباء على الأبناء. انظر إليه كيف تنبّه وفزع من قطرة دبس سقطت على جبّته. هو نفسه ما أن انتهى من

تنظيفها حتى استغرب ذلك التناقض بين ما فعله وبين ذاته الناقمة على الحياة، والتي لا تكف عن التفكير بالموت والقبور. أليس هو القائل أيضاً: فلتفعل النفس الجميل لأنه خير وأحسن لا لأجل ثوابها؟ فهيا يا ولدي، عش حياتك ولا تدع الأسئلة تبلبلك وتقض مضجعك واكثر الزاد فإن السفر بعيد.

تساءل محمود مع نفسه فهل أعد الصيدلاني زاداً للرحيل وإن لم يفعل فهل هو الآن في النار؟؟ وأراد أن ينقذ نفسه من هذه الفكرة التي لاتتبدد أبداً فراودته مثلما راودت المعري في بيت قاله منذ زمن طويل في اللاذقية، وهو الآن يتردد في رأسه كالجرس الذي لا يستطيع منه فكاكاً:

- كلٌ يعزز دينه.. ليت عمري ما الصحيح؟ فهل عبد النور الآن في النار؟

- الـلـه أعلم بالصحيح يا ولدي. جاء في سورة طه من القرآن الكريم أن فرعون سأل نبي الـلـه موسى عليه السلام "فما بال القرون الأولى. قال علمها عند ربي في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى".. إن الـلـه عز وجل لن ينسى أحداً من القرون الأولى، فكيف ينسى من سماهم بأهل الكتاب؟.. "وإنْ جادلوكَ فقلِ الـلـهُ أعلمُ بما تعملونَ. الـلـهُ يحكمُ بينكمْ يومَ القيامةِ فيما كُنتمْ فيه تختلفونَ".

ولما تحققت راحة الشيخ في إجابة محمود كوَر سبحته وفركها في يده فهو الآن يقفز إلى سؤال مفاجيء:

- فَأخبرْني الآن يا محمود.. ما أجملُ شيءٍ رأيتَه في هذه الدنيا الحلوة الخضرة؟.

دون أن يشعر كور محمود الفراغ وفركه في يده مقلداً حركة شيخه ثم قال:

- أجمل ما رأيته في الدنيا هو غروب الشمس، يا شيخي.. هذا الأصيل الرباني الذي جعلني أشعر لأول مرة رأيته فيها أني قد انتقلت من جنة إلى جنة، وأنه لا قدرة لي على أن أرى بهاتين العينين الفانيتين هذه العظمة اللامتناهية لهذا الكوكب الخلاب، فقلت لنفسي حق لإخناتون أن يظنها إلهاً فيعبدها، وحق لنبي الـلـه إبراهيم أن يقول عندما رآها بازغة هذا ربي، ولكن الشمس غربت فقال لا أحب الآفلين، وحق للناس أيضا أن يسمّوا وقت غروبها بالأصيل.

قال شيخه:

- كم كنتَ تحب نبي الـلـه إبراهيم وكنت تصفه بالسبع الجسور.

قال محمود وهو يقطع اسم إبراهيم على مهل:

- أبــ راهيم. أب لجمهور كبير إلا هاجر فقد تركها في واد غير ذي زرع.
- كان هذا أمر الـلـه يا ولدي، و الـلـه لم ينسها.

- ما أجسره وما أجمل تمرده عندما كان يقف في دكان أبيه بمدينة أور ليبيع تماثيل الآلهة التي يصنعها أبوه، فكان يصيح ساخراً: من يشتري هذا الأصم الأبكم؟ من يشتري هذا الذي لا ينفع ولا يضر؟

قال شيخه:

- أما زكريا، فكنتَ تقول عنه ما كان يجب أن يهرب ويختبئ في جذع شجرة.. فلما كنت أقول لك بأن هذا امتحان من اللـه ،سألتني وهل ينجح في الامتحان من يختبئ في جذع شجرة؟

ضحك محمود وقال:

- وكنت تنهاني عن مثل هذه الأسئلة، وتقول لي إن الأنبياء معصومون من الخطأ.ولكن هل صحيح ياشيخي أن اليهود اتهموه مع مريم العذراء فطاردوه.

- من قال ذلك؟

-هذا ماأخبرني به عصام.

- لم أسمع بهذا من قبل.

-وهل مريم أخت هارون يا شيخي؟

- كلا يا ولدي.

- إذن لماذا ورد في القرآن الكريم عند الحديث عن قصة مريم قوله تعالى "يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيّاً"؟.

- هذا كلام جاء على لسان قومها وهومجاز.. يقصدون به اخته في الورع والتقوى وخدمة الهيكل . ألا يقول الـلـه سبحانه وتعالى: "إن الـلـه اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم"؟، فهل دفع لهم النقود مقابل ذلك؟، وهناك قوله تعالى: "نسوا الـلـه فنسيهم"، فكيف ينسى الـلـه من نسيه و الـلـه منزه عن كل نقص ونسيان؟ إن المراد بالنسيان هنا هو الترك، ولا يفسر القرآن سوى القرآن.

لم يشعر محمود بالساعات إلا وهي تنقضي بسرعة مع شيخه عبد الرحمن وهذا ما كان يخلص إليه محمود من حاجة الناس إلى الدين والتقوى وهو المعنى الذي لم يجد في تكراره مللاً. أما بلوغ عمر نوح عشرة قرون وقامات يا جوج وما جوج طول شجرة الأرز أو امتلاكهم الآذان الكبيرة التي ينام الواحد منهم على أحداها ويلتحف بالأخرى، فكانت أبعد ما تكون عن رغبته بتصديقها. كان يشفق أيضاً على الكفار من قوم إبراهيم أو هود أو ثمود، من رهبة تغيير ما وجدوا عليه آباءهم. لم يجاهر بذلك لشيخه قط، بل كان يعرف فقط كيف يكون صعباً ذلك عليهم ويشاطرهم الرهبة وهم يجادلون في الدين الجديد: (قالوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ).

الدار قريب من الجامع.. وهو أيضاً مما تطيب له النفس مثل بيتٍ سعيدٍ لا صوت له، أما إذا ملأه أحد بالصراخ والتهديد فلا

يراه إلا ضجيجاً يصم الآذان.. وحده أذان الظهر يجعله يطيب نفساً كما تطيب قريرة اليوم حين نودي للصلاة بعد رفْعُ الأذان. راح الشيخ يشمّر عن ساعديه استعداداً للوضوء، وقد خطا قليلاً نحو النافذة، فبدا تحت ضياء الشمس طاعناً في السن أكثر مما ينبغي:

- ذات يوم، وفي بلد إسلامي لا يتكلم العربية، صحوت في منتصف الليل لا أعرف كم الساعة، وعندما اتصلت بموظف استعلامات الفندق عجزت لغته الأجنبية عن إعلامي بالوقت أو ربما أنا الذي عجزت عن فهم الكلام، فأغلقت سماعة الهاتف وفتحت باب الشرفة، وقد جافاني النوم، لأتفرج على منظر البحر الذي كانت تضيئه أنوار السفن، وما هي إلا دقائق قليلة حتى ارتفع أذان الفجر من جامع قريب، فتكلمت السماء أفضل من الأرض وعرفت أن صلاة الفجر قد حانت وأن الصباح سيدركنا بعد قليل- ثم التفت إلى محمود وقال- وعندما تحين ساعتي، أريدك أن تكون موجوداً، يا محمود، فهيا بنا نصلي الظهر.

11

المرأة والرجل

نداء خفي يأتيه من العلبة الخشبية المليئة بالصور.. صوت كصرير الخشب يبدد صمت الغرفة الذي يشبه الصفير الممتد حتى وإن سكت الجميع.. التفت إليها وأخرجها من خزانة الكتب ووضعها في حضنه. تحسس الصور وفركها واحدةً واحدة بين يديه، فانفتحت عن عشرات السنين التي ضمته مع أصدقائه وأقربائه وزملائه في المدرسة ثم في الكلية التي تخرج منها قبل أعوام. كلهم يبتسمون بانتظار التقاط الصورة أو يجمدون خائفين من الإتيان بأية حركة. الصور ليست قليلة، وكان أبوه يحرص على الاحتفاظ بها توقعاً ليوم سيأتي يستعيد فيه محمود بصره.. أغلبها أُخذت وهو بعد العاشرة من العمر مع أصحاب بعضهم أشعث الشعر وبعضهم أنيق الملبس وبعضهم سيدل عليه طوله الفارع أو تفضحه سمنته المفرطة. بل إن بعضهم يبدو مألوف الشكل إذا كان قد عرفه ورآه قبل عماه. فهل هذا الناحل الطويل هو ياسين الذي علّمه كيف يرسم الوجه من الجانب على شكل كلمة متصلة واحدة هي كلمة (ملح)؟ وهو أيضاً الذي علمه رسم الأشجار والورود وبعض الحيوانات حتى حفظ ذلك عن ظهر قلب، وتخيّل ما كان يصف له من الغيوم والظلال والنجوم والنار والشرار وكل الأشياء التي يسمع عنها ولا يستطيع أن يلمسها أو يقترب منها، بالإضافة إلى كونه لا يراها؟

إذا كان هذا الناحل الطويل هو ياسين، على ما يبدو من بشرته البيضاء وشعره الأصفر، فهل هذه الناعمة الجميلة هي مريم ابنة عمه التي تزوجت قبل أيام وسافرت إلى السويد؟. كانت تريد للشمس أن تطلع في يوم سفرة مدرسية إلى عكركوف، ليس من أجل الاستمتاع بدفئها وشروقها ولكن من أجل أن ترتدي نظارتها الشمسية.. هذا هو حال البنات الجميلات اللواتي كان محمود يحبهن ويلعب معهن كثيراً في طفولته حتى أسماه رفيقه المزعج سعيد بالزنانة(ii). فهل سعيد هو هذا السمين القصير الذي يخرج له لسانه في الصورة ظاناً أنه سينجو بفعلته تلك إلى الأبد؟ مزق محمود الصورة التي بين يديه؟... ثم اعتصرت قلبه غصة ألم عندما تذكر كيف كان بعض الأطفال يرمونه بالحجارة بعد عماه وقد نجوا أيضاً بأفعالهم تلك إلى الأبد.

التعرف على من هم أكبر سناً أصبح ممكناً، وهو يقلّب الصور تباعاً ويعيد تقليبها مراراً وتكراراً ليصل إلى صور حديثة التقطها في أعوام الكلية الأربعة. يكاد يسمع لغط تلك الأيام فيجد أن من غير الصعب عليه أن يطابق بين أسماء البنات اللواتي درسن معه ووجوههن التي يراها أمامه. أحياناً يتوصل إلى ذلك من معرفة المكان الذي يقفون فيه وأحياناً من الملابس التي يرتديها هو، أو الطريقة التي يجلس بها أو الوقت الذي تكون الصورة قد التقطت فيه.

كانت الوجوه الجميلة التي رسمها في خياله تقارب تلك التي يراها الآن بأشكالها الحقيقية، والبنت الوحيدة التي كان أصحابه يصفونها بالدميمة لم يجدها، وهو يرى أسنانها البارزة إلى أمام، من الدميمات حقاً، بل وجدها الأقل جمالاً من الأخريات، وهذا هو ما اكتشفه تلك اللحظة من قانون الجاذبية في أمر جمال البنات. أغلب الذين يراهم في الصور يدرّسون الآن اللغة العربية أو التربية الإسلامية في المعاهد والمدارس. وهو الوحيد الذي شق لنفسه طريقاً آخر مختلفاً عنهم، رسم مسارَه عصامُ صديقه الحر الطليق والموهوب بالتلحين والصوت الجميل. كان عصفوراً بحق، وقد غامر معه بالانضمام إلى فرقة للإنشاد بدلاً من ممارسة عمل روتيني كالتدريس. ولكن أين هو عصام؟ عاود تقليب الصور مرة أخرى بحماسة البحث عن وجهه الذي أصبح بإمكانه التعرف عليه، بعد أن رآه في موقع التصوير يوم أمس. ولكنه عندما حاول التعرف على أصدقائه الآخرين الذين رافقوه في سنواته الجامعية، بلبلته الحيرة في التعرف على أولئك الذين كانوا يتميزون بأطوال متشابهة أو الذين تخلو وجوههم من أية علامة فارقة يشتهرون بها.

كلبه هو اليقين الوحيد الذي لا يرقى إليه الشك بين كل من في تلك الصور، رافقه في سنوات طفولته ثم مات مدهوساً بسيارة الجيران فأخذه أبوه ليدفنه في مكان بعيد قائلاً له إنه هرب ولن يعود، فعلم محمود بموته من أولاد الجيران. تعرفه المؤكد على كلبه خلافاً للآخرين أوحى له بفكرة مفادها أن الكائنات التي لا تعقل،

لا تنفرد في اختلافات أشكالها عن أشكال البشر حسب، وإنما في براءتها وغفلتها عن الفظائع التي ترتكبها تلك الكائنات المتشابهة ذات العقول. ألهذا يجد صور الكلاب والقطط والخرفان والأرانب والسلاحف مرسومة على أغلفة أكياس البطاطا والذرة والحلوى، فيؤكد له ذلك أن تلك المخلوقات هي الأقرب والأحب إلى مخلوقات أخرى تشبهها في البراءة، هي صغار البشر الذين يعيشون على الأرض؟.. ألهذا أيضاً تخلو القصص التي تُتلى على الأطفال وتُكتب لهم، من كل هَمٍّ أو حزن أو مأساة كبيرة؟

انتشله جرس الباب من أفكاره تلك، فنهض إليه مسرعاً، ثم تباطأ في سيره ونظر أولاً من فتحة بين شطري الستارة قبل أن يتحرك خطوات إلى الباب القريبة من النافذة. سمع صوت خشخشة معاضد وأقراط وهسيس ثياب امرأة سبقها عطرها الذي اخترقت أمواجه باب البيت وجعل أنفاسه تتهدج وقلبه يضطرب وكأنه مقبل على ملاقاة شبح. قال "من" وشعر بأنه قد قالها من قبل في الماضي وأنه الآن يقولها مرة اخرى :

- من؟

فقال الشبح:

- أنا.

صوت خفيض فيه خشونة، يتذكر أنه سمعه من قبل عندما جاءت تلك المرأة تسأل عن أبيه قبل شهور.. فأخذ نفساً عميقاً، ثم فتح الباب على مهل وكلماته تسبق فتحة الباب :

- من أنت؟

قالت:

- أبوك موجود؟

قال:

- غدا سيأتي.

نظرت إليه ملياً، وهي لا تدري أنه يراها، بينما هو ينظر إليها وينزوي في فمها الذي رسمته على شكل قلب أحمر ثم يهبط الى أحد قدميها، الذي كان له قرب الإبهام إصبع أطول من باقي الأصابع.

قالت، وهي تنظر إليه بغرابة:

- هل أنت ابنه الذي...

أجاب سريعاً:

- نعم أنا ابنه الذي لا يرى. من أنت؟

نظراتها إليه ازدادت غرابة:

- أنا قريبته من بعيد؟ هل يمكنني الدخول؟

الأُفعى التي رآها في منامه تسللت إلى البيت، وأغلقت الباب خلفها، وشعر بأن ما يحدث الآن قد حدث من قبل، وهو يحدث الآن مرة أخرى، فهل تكون هذه المرأة قد زارته في المنام؟ أم تكون هي نفسها المرأة التي قال عنها أبوه إنها زوجته عندما وجده يغازلها في الحديقة؟.

قال:

- أأنت قريبته أم زوجته؟

قالت، وقد بدأت تفتح فمها وكأنها تتهيأ للأكل:

- أنا قريبته من بعيد.

قال مرة أخرى وبعد فوات الأوان:

- أبي ليس موجوداً.

كان يشعر بأن ما يحدث ليس حقيقة مؤكدة، ولهذا لم يكن معنياً بأن يسألها كيف لا يعرفها إذا كانت كما تقول قريبتهم من بعيد؟..... تاه في صمته..... ابتسمت وكأنها تقرأ أفكاره وارتباكه الواضح، ثم ضحكت بصوت مسموع، وقالت:

- لم أكن أعلم أنك جميل هكذا.. إنك تشبه فلعة القمر.

انتفض جسمه كالعصفور الذي بلله المطر.. وبدأ رأسه يتعرّق، وشعر بأنه يبتعد عن الأرض وبأن الخدر الذي يسري في رأسه يتسلل من نصفه الأعلى إلى قدميه، فلا يعود يشعر بوجود أرض تحت قدميه.... قالت مرة أخرى وهي تقترب منه:

- ما أجملك!

ثم وضعت ساقيها حول ساقيه فأصبحت بينه وبين الباب وأصبح بينها وبين الهواء..... خطوة أخرى واقتربت أكثر والتصقت به، ثم أخذت يديه بيديها وراحت تمررها على جسمها حتى عقدتها عند مؤخرة شعرها الطويل.

- تعال بحضني.

ولم يعد أمامه سواها.. وأصبحت تحاكي صوت الأفعى وهي تلتف عليه وتأكل منه وتعصره.. فأكلت من صدره ومن فمه.. وخلعت عنه قميصه المبلل بالعرق وأصبح وجهها أفواهاً تأكل من جسمه، فتعذّر عليه أن يمنعها من ذلك، لأنه كان يرى ويسمع ويشعر باللذة ولا يقوى على رد تلك الأفواه التي تأخذ طعامها منه وتلتهمه وهي تلتف حوله وتفتك به فتكاً.

12

الحي والميت

كانت عيناه في المرآة مبعثرتين إلى أكثر من اتجاه.. تركها جميعا وهرب إلى الصالة حيث تبدلت الوجوه بضع مرات أمامه على شاشة التلفزيون، وهو يواصل بلا انقطاع تفكيره بتلك المرأة الغريبة التي جاءته في الصباح.. وادّعت أنها قريبة أبيه... عجباً! من تكون تلك المرأة التي التفّت عليه كالأفعى، ثم نفثت سمها فيه وتركته عليلاً لا يقوى على الحركة؟. رأى نوعاً من الجراد أخضر اللون تحتاج انثاه إلى مزيد من القوة أثناء التزاوج فتقوم، وقبل ان ينتهي الجماع بينها وبين الذكر بالانقضاض على رأسه والتهامه.. تمضغ الأنثى رأس الذكر بينما جسمه يقدر على الاستمرار بالجماع حتى يتمه دون رأس.. فهل تلك المرأة المغناج التي التهمت رأسه ولسانه، هي فعلاً امرأة من لحم ودم مثل باقي النساء؟، أم هي تلك الجرادة التي وجدت فيه فريستها عندما رأت أباه غائباً عن البيت؟، أم هي ابنة إبليس تلبست لبوس امرأة وجاءت لتغويه وتفتنه وتلتهم رأسه؟ لايفهم كيف غاب عنه ذلك لحظةَ أنْ همّت به تلك المرأة.. وكيف سيتوصل إلى معرفة من تكون؟ وكيف سمح لغرائزه ان تنجرف مع إمرأة يراها للمرة الاولى؟ إن كانت تلك المرأة قريبة أبيه، كما ادعت، فالأمر يهون عليه ويكون الـلـه قد لطف به ودفع عنه ما هو أعظم، ولكن ماذا لو كانت هي نفسها التي رأى أبوه يحاول

احتضانها في الحديقة، ثم قال له إنها زوجته؟. استغفر ربه واستعاذ به من الشيطان الرجيم شاعراً بأنه، في كلا الحالين، لن يخلد إلى الراحة، بل إلى الدمار الأكيد، فكيف سمح لغرائزه أن تنجرف مع امرأة يراها للمرة الأولى؟ وكيف باع النفس الثمينة بلذة تنقضي في أقل من دقائق.

حاول أن يستعيد وجه تلك المرأة التي كانت مع أبيه في الحديقة يوم أمس، ولم يتمكن إلا بصعوبة بالغة من استعادة جزء من ملابسها التي كانت ظاهرة من خلف جرم أبيه ولمحة خاطفة من جانب جسمها الذي ارتد وجفل وتوارى خلف جسم أبيه، عندما لمحت ابنه واقفاً عند الباب. إنه لا يعرف حتى أن يقدّر عمرها أو يخصها بأوصاف محددة أو علامات فارقة..

تلك المشكلة جعلته يصارع فكرة واحدة عن تلك المرأة التي جاءته في الصباح وهي أنها أغلب الظن نفسها المرأة التي قال عنها أبوه إنها زوجته.

سأل عمته قبل أن يخرج من بيتها، وقد قصده أصلاً لهذا السؤال:

- هل واحدة من زوجات أبي تسكن قريباً من هنا؟

قالت بطريقتها الساخطة على أبيه دوماً:

- سمعت أن هناك واحدة قريبة من هنا، صاحَبَها بعد موت أمك.. ولكني لا أعرف من هي؟ ولا أريد أن أعرف أَصَاحبها أم تزوجها؟

فتح عينيه في الظلام، وقد أصبح في موقفِ من هبط من سابع طبقات السماء إلى سابع طبقات الأرض.. طوال ما مضى من عمره يتساءل من أنا؟ ومن أكون؟ وكيف سأختفي من هذا الكون بين ليلة وضحاها؟ ولماذا الحياة إذا كان الموت؟.. وغير ذلك من أسئلة تنهال عليه في كل حين مثل انهيال التراب على الميتين، وقبل أن تدفنه وهو حي، ينقذه منها شيخه عبد الرحمن بالكلام عن السعادة وأداء الواجب وإسداء النصح بأن يولد لكي يعيش ويؤمن بالحياة الأخرى، قائلاً له: ما فات الإنسان من زمان الذر هو الموت الحقيقي الذي لم يدرك فيه العالم، وليس الزمان الذي هو فيه وما هو آتٍ بعد الحساب. فكن شاكراً يا ولدي ولا تكن كفوراً. ثم يقرأ له، من سورة الإنسان، الآيات التي تقول: "هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا. إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً. إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً".

فكيف وجد نفسه بعد ذلك كله كفوراً يهبط بجناح واحد إلى أسفل سافلين ويتساءل عن هذه الجرادة ذات المضغ واللثغ والتأوهات من تكون؟ يتساءل عنها منذ ساعات ولا يكف عن التفكير بمن تكون، ويلح عليه السؤال، وتصبح إجابته هي الموت أو الحياة ويحاصره مثل كابوس مديد أين منه كابوس طفولته الوحيد الذي لا يتذكر سواه، عندما لم يوقظه أبوه من النوم فذهب إلى الامتحان النهائي متأخراً وسقط مكملاً للمرة الأولى والأخيرة في حياته؟

الأخبار التي كانت تسوء من قناة إلى أخرى انتهت في قناة تعرض برنامجاً عن التنجيم يتلقى اتصالات كثيرة من جمهور أغلبه من النساء، والمتصل الوحيد من الرجال كان اسمه أحمد داود وقال إنه من مواليد برج الحوت. فرفع محمود الصوت وأخذ يستمع إلى امرأة جميلة تقرأ الطالع بصوت طفولي وترتدي قميصاً بدا له أنه أصفر اللون. حاول أن يقدر عمرها فلم يستطع، وسمعها تقول إن بعض الأمور المعاكسة ستحدث لمواليد برج الحوت هذا الأسبوع، وإن كوكب نبتون في هذه الفترة يجلب الحيرة لهم والتشتت وسهولة الوقوع ضحية الكلام المعسول. وقالت أيضاً إن رجل الحوت أفضل ألوانه اللون الأرجواني.. ومن خصائصه أنه يحب الوحدة وحساس وفنان وله مزاج خاص لا يشبه أحداً.. كاتم للأسرار هو هذا الرجل، حذر في الكلام الذي يقوله... والرجل الحوت هو الأحلى في عالم الحب حتى لو لم يتكلم، فالقرب منه دفء، ومجرد الانفصال عنه قلق.. رجل الحوت لا يحب أن يؤذي أحداً، وقد تجده في معظم الأحيان وحيداً متأملاً في كل أموره.. أسعد أيامه الخميس.

فكر محمود، نعم أسعد أيامه الخميس عندما رأى، وأتعسها هذا اليوم عندما غُوي. وللتو تذكر لعبة رويال مدريد مع مانشستر يونايتد التي أخبره عنها أولاد الحي يوم أمس لأنهم يعرفونه مشجعاً قديماً للفريق الإنكليزي، فقال لنفسه عجباً كيف نسي موعد تلك المباراة التي ينتظر أن يراها وهو مبصر، بعد أن كان

فيما مضى يراها وهو أعمى قاطعاً الساعات الطوال أمام التلفزيون وهو يستمع إلى الدوري الإنكليزي ويحفظ عن ظهر قلب مواعيده وأسماء لاعبيه للفرق العشرين.. بل أنه تعدى ذلك إلى معرفة أسماء لاعبي كرة القدم جميعاً وتواريخ مواليدهم والألوان التي يرتدونها.

واليوم هو الاثنين، وهو موعد (أوردر التصوير) الذي أُلغي يوم أمس.. وهذا ما كاد ينساه أيضاً.. وبعد قليل سيمر عليه سائق الخط، ليأخذه مع باقي أعضاء فريق القناديل إلى موقع قريب من ضفة النهر لتصوير تلك الأغنية عن الوطن التي تأجلت.. فكيف سيشعر عندما يراهم للمرة الأولى؟ كان سيكون أكثر سعادة ومرحاً في تعرفه على وجوههم، لو لم تنغّص عليه وساوسُه وأفكارُه الحزينة ذلك اللقاءَ، بل فاقمت عليه تعبه واضطرابه فيما هو فيه، فرأى السائق أكثر غلاظةً من ذي قبل والغرة فوق جبهته أكثر سواداً وتفحماً.. وهو عندما بحث عنها في باقي الوجوه لم يجدها في جباه الشباب الغضة من أعضاء فريق القناديل.. تعابير وجوههم أيضاً كانت أكثر براءة وعيونهم مشرقة بضوء نقي. أقنعهم المخرج بالغناء مع البنات الجميلات، فأصبحوا يرتدون قمصاناً بيضاء ستناظر ملابس البنات الوردية لكي يبدو الجميع مثل مخلوقات بريئة وجميلة تضيء داخل بقعة غناء من الحديقة.

يشعر محمود بأنه سيكون بقعة الظلام الوحيدة الموجودة بينهم. كانوا طوال الطريق يمزحون فيما بينهم وهم يتلفتون إلى بعض

البنات اللواتي يصادف مرورهن في الطريق، ويعلقون حول قصّات شعورهن وملابسهن وأي شيء آخر بسيط يثير انتباههم في هيئات أولاء البنات إلى أن قرروا أخيراً أن يكفوا عن ذلك الضجيج ويردّدوا مذهب النشيد عن بغداد:

بغداد أنت هوى قلبي أبوح به
وأنت جرح بعمق الجرح أفناني
ولست أملك غير الهمّ أسكبه
وغير الدعاء على جلادك الجاني
جرح الجزائر هم قد أدمى جسدي
آه وجرحك يا بغداد أدماني

- محمود، لماذا لا تغني معنا؟

كان النشيد يزيد بغداد خراباً وهو مشغول بالخطيئة وحدها، يفرك مسند المقعد بيديه والغشاوة تلتف على ناظريه وتربكه بتلك الخطوط البيضاء التي تظهر وتختفي.. صامتاً لا يعرف ماذا يفعل أو يقول؟، أصبح يشعر بأنه بلا رأس ولا لسان، وبأن راحته لن تعود له مطلقاً وباله لن يهدأ أو يستقر بعد اليوم ما دام الشيطان قد تلاعب به وأغواه، فقال حقَّ لك يا معري إذن أن تزهد بملذات الحياة بعد أن رفعت الستار عن خداعها وبطلانها، وحقَّ لك أن تسيء الظن بالناس وتحذرهم وأن تمقت الدنيا ولا ترى فيها إلا الشرور والآثام وأن تنظر إلى العالم نظرة السخط والمقت والازدراء،

قانعاً من الطعام بالعدس ومن الحلوى بالتين ومن المال بثلاثين ديناراً في العام.
في هذه اللحظة، التي وصلت فيها أفكاره ذروتها المؤذية من الحزن والتشاؤم واليأس، سمعته الدفوف الموضوعة على المقاعد فسقطت أرضاً.. مد السائق يده والسيكارة لا تفارق فمه ليساعده على الهبوط، فشعر محمود بتلك اليد تزحف وتلتف هي الأخرى عليه كالأفعى..
وتبدو حيواناً أسود يزيدها خاتم الزواج الفضي سواداً، فقال له:
- أعرف طريقي.
وسحب يده من يد السائق وشعر بأنه يريد أن يرفع أحد تلك الدفوف من الأرض لكي يضربه بها، ولكنه تراجع عن ذلك ونزل ركضاً إلى الارض حتى كاد أن يسقط.

13

السؤال والجواب

أصبح واقفاً عند الباب بعد أن تركه السائق الغليظ الذي أصر مرة أخرى على الأخذ بيده، وسُحُبُ الدخان لا تفارق فمه وشاربيه. كان ملمس يده لا زال عالقاً في أصابعه، ووجده بشعاً مثل جبهته وشاربيه، بل وجد القبح في كل شيء بعد أن كان قد وجد الجمال آسراً يحيط به من كل مكان أول أن فتح عينيه.

كان قد سأل شيخه، قبل سنوات، عن معنى "شر غاسق إذا وقب"، فقال له إنه الذي يدخل البيوت وقت الغسق ونزول الظلمة عليها، وهو أمر غير مستحب وتتطيّر منه القلوب، لأن الداخل في هذا الوقت لا بد أنّ ثمة خبراً سيئاً يضطره إلى ذلك. ولكنه مضطر فعلاً ويجب أن يذهب إلى شيخه.. ولا يدري ماذا يفعل؟ وبالكاد استطاع النوم تلك الليلة الطويلة التي أعقبت نهار الخطيئة، وظل يتقلب في مضجعه يراقب وزغاً لابثاً على الحائط، ويقول لماذا لا يتحرك من مكانه ويختفي من أمام عينيه. سمعه الوزغ فمشى مسرعاً وأختبأ خلف الستارة.. وجد محمود ذلك أكثر إزعاجا وإثارة للقلق، وظل يكرر نظراته إلى أعلى الستارة حتى ارتفع أذان الفجر، فنهض يصلي ويقرأ القرآن لحين اكتمال طلوع الصباح.

عندما جلس بالقرب من شيخه يوم الثلاثاء حزيناً صامتاً لا يدري كيف يبدأ الكلام، أدرك الشيخ على الفور أن ثمة خطباً جسيماً قد حدث، فبادره بالقول:

- ما بك يا بني؟

قال محمود:

- أريدك أن تنقذني، لأني أتعذب..

وقبل أن يتم كلامه، جاء نزيل من نزلاء الدار خرفٌ رث الملابس وأشيب الشعر، وقال للشيخ وهو يمد يده للمصافحة:

- سيكارة؟ هل عندك سيكارة؟

كانت في يده ساعة كبيرة قرأ محمود وقتها فوجدها تشير إلى العاشرة فاستغرب محمود كيف توصل إلى قراءة الوقت وهو الذي لم ير ساعة في حياته منذ أن كان في السادسة.. نهره الشيخ وأمره أن يبتعد فوراً. فبدا الرجل، وهو يلتفت إليهما ويضحك، مسخاً مفزِعاً لا يمكن العثور في وجهه على معنى. "تباً"، قال محمود لنفسه "ما فرق معركة هذا الرجل الخاسرة عن معركة أفراخ الدجاج التي رآها في برنامج تلفزيوني توضع تحت ضوء ساطع لمدة ثلاثة أيام متواصلة لا تنام فيها ولا تنقطع عن تناول الطعام فتسمن في غضون ساعات قليلة وتنمو إلى الحجم المناسب الذي يؤهلها للذبح.

- هل اعتديت على أحد؟

قال محمود:

- لا أدري من هو المعتدي؟ ولكني قد أخطأت.

قال الشيخ:

- كل ابن آدم خطّاء وخير الخطائين التوابون.

طأطأ محمود رأسه إلى الأرض وقال:

- ندمت أشد الندم.. فهل يكفي هذا لمحو الخطيئة؟

قال شيخه:

- الندم مفتاح التوبة.. فلا تجزع يا ولدي ولا تقنط من رحمة الـلـه.

- لكنها امرأة.. وقد همتُ بها وذبتُ بين أحضانها.. وقد طاب لي أن أفعل ذلك.. إنه شيء جميل وبه لذة عظيمة.. فماذا بشأني وأنا، منذ تلك اللحظة التي انتفضت فيها، نادم على ذلك أشد الندم.

- هذه مصائد إبليس.. ولا سلطان لإبليس إلا على الإنسان .. منذ أن أُخرج آدم من الجنة الى الأرض وهما بعض لبعض عدو. ولكن كيد الشيطان ضعيف على المؤمن. فهل لا زال إيمانك ضعيفاً يا ولدي..

لم يستطع محمود أن يرد على شيخه بشيء عن ضعف الإيمان.. خجل أن يفعل ذلك كما لم يتمكن من القول إن ما فعله هو من الكبائر وليس من الذنوب أو اللمم ، وإن الشك قد تسرب إلى نفسه في أن تكون تلك المرأة التي لا يعرفها هي نفسها زوجة أبيه. فقال الشيخ وقدماه تتحركان على جانب السرير المرتفع:

- جاء في سورة يوسف من القرآن الكريم إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي إن ربي غفور رحيم.
- كنت أنعم بالحياة الهانئة، فنغصتها عليّ تلك المرأة التي لا أعرف كيف ظهرت وأغوتني.
- لا تجزع يا ولدي. إن هذا مذكور في القرآن عندما، همّت زُليخة بنبي الـلـه يوسف وهي أول حادثة اغتصاب مذكورة في كتاب. ولكن لا سلطان لإبليس على نبي إنما على الإنسان فحسب.
- وماذا سيفعل هذا الانسان؟
- لقد أقسم الـلـه سبحانه وتعالى في سورة القيامة بالنفس اللوامة لأنها لا تثبت على حال واحدة فتتلون وتتقلب وتوقع المؤمن في الذنب ثم تلومه عليه وتردعه عن كل معصية، ومصائب الحياة تؤدي إلى التقوى لا إلى الفجور، لأن ما يحدث في ساعة نلوم أنفسنا عليه ألف ساعة. لعل المحظور قد وقع في وقت خاطف حتى وإن كان من كبائر الذنوب. أما وقت الإفاقة ثم الندم فانظر ما أمضّه وما أطوله. هذه هي التوبة يا ولدي محمود، وهذا هو الندم الصادق الذي يغسل الذنوب.

يعرف محمود أن الشيطان قد تلاعب به وأغواه، ولكنه تساءل حزيناً إذا كان إبليس هو الذي نصب هذه المكيدة له.. فمن يكون الخاطئ؟ هو، أم المرأة، أم إبليس؟ ولماذا يتحمل هو وزر خطيئة لم

يكن يعرف عنها شيئاً من قبل أو يظن أنها موجودة بهذه الصورة؟.. لقد حملتها له تلك المرأة على شكل لذة عظيمة، فكيف تكون تلك الخطيئة جميلة بلا إنتهاء ولا تكون قبيحة الأثر كالكذب والقتل والسرقة؟، كيف تمنحه اللذة المفرطة في لحظة ثم تتحول في اللحظة التالية إلى مدخنة يتصاعد منها الحزن طيلة الحياة؟. هل ستكون الدنيا، لخائف مثله، متاهةً من دخان الذنوب والخطايا والكبائر، أم أن الحياة لا ترجع إلى الوراء ولا تلذ لها الإقامة في منزل الأمس؟.. بهذا المعنى وجد كلاماً جميلاً في كتاب اسمه (النبي) أهداه له استاذه ألبير قبل أن يموت، بينما يحمل شيخه عبد الرحمن مفاتيح النظر إلى الوراء من أجل التوبة والندم على كل خطأ يرتكبه الإنسان في دنيا مليئة بالأخطاء والبلايا.. هو شاعر بهذا المعنى بما فيه الكفاية، ولكن السؤال الذي يعذبه بأنْ لا يكون للجمال الخالص، الذي يملأ الدنيا، من حوله، البهجة والقدرة على هزيمة الخطايا والشر المحتوم.

كان الشيخ يبدو، داخل دشداشته البيضاء، أنحف من ذي قبل، والتعب بادٍ عليه، فأبى محمود على نفسه أن تكون الخطيئة حاضرة في هذا المكان النظيف، فدار بأصابعه على مقبض الكرسي وهو يقول لنفسه "ما شأنه واغتصاب زليخة ليوسف؟ ولماذا يعتقد الشيخ أن بإمكان البشر أن يكونوا كالأنبياء؟.. أليس الأفضل أن يتحدث إليه قائلاً بأن الوقت سيمر بسرعة، فيكبر كل صغير إلا المشكلة تبدأ كبيرة ثم تصغر؟. فهل يعرف شيخه شيئاً غير تلك القصص؟

وهل حقاً سيأتي اليوم الذي تخبو فيه وتزول كل المصائب والكوارث من الحياة فلا نعذب أنفسنا بها بأكثر مما تستحق؟".. ما أغرب أن لايجد في كلام شيخه الجليل قشة واحدة تتمسك بها يدا جسمه الغريق وماأتعس أن يلتمس قولاً لأبيه ،قدوةً في احتمال مصائب الحياة وهو رأس البلاء وتلك العصا العوجاء التي قالت عمته إنها لا تشبه البقية من البشر الأسوياء، لا.. ليس صحيحاً ما قال أبوه إن كل شيء يبدأ صغيراً ثم يكبر إلا المشكلة تبدأ كبيرة ثم تصغر.. بل الصحيح هو أنه لا يوجد شيء على ما يرام في هذه الحياة. ما أن يولد شيء حتى يسعى إليه الموت وينتهي وهو يضحك ويبتسم.. ولن يغفر أبداً لتلك المرأة الجرادة أنها جعلته حزيناً بعد أن منحته اللذة.. لو فكرت بالموت وخافت منه كما يخاف هو لما فعلت ما فعلت.. وها هو أيضاً يلتمس الأسباب للوقوف في وجه ذلك الموت. لا يعرف محمود لماذا يحدث كل هذا الحزن بعد تلك اللذة، ولكنه كان في تلك اللحظة يبتسم من شدة الأسى.

14

الزمان والمكان

عندما استيقظ من النوم صباح الأربعاء منتشياً على رائحة الخبز الذي يشوى لتوه في التنور، عرف أن عمته قد جاءت مبكرة على غير عادتها وأنها تعد اليوم له فطوراً مميزاً عن باقي الأيام. جعله ذلك يشعر بالرضا التام، فتمطى وتثاءب وانتابه إحساس غامر باللامبالاة وبالرغبة في ضرب مصائب الدنيا كلها عرض الحائط، وتناسى النار التي احترق بها قبل يومين وتساءل ماذا حدث لكي يستيقظ سعيداً هكذا بعد أن سقطت يده من فوق جبهته إلى الفراش.. ثم يهدأ وتقر نفسه مستأنسة بصباح جديد...أهو غناء البلابل أم رائحة الخبز؟ أم أن هذا الإحساس المريح الذي فاجأه بعد الاستيقاظ، هو مما يؤكد حكايات عمته التي لا تنتهي عن لذائذ الطعام وقدرتها على أن تذهب بالحزن بعيداً عن الإنسان حتى وهو في أسوأ حال. حكت له أيضاً عن اتصال هاتفي سمعته من المذياع يقول إن صاحب العقار في الغرب إذا أراد أن يبيع بيته بسرعة عمد إلى وضع أرغفة الخبز في الفرن ثم تسخينها أثناء دخول المشتري إلى البيت، فإذا ما تشمم المشتري هذه الرائحة الطيبة ارتاحت نفسه وطابت ووقع في غرام البيت. كانت تعطي الخبز لمن يريد ولا يريد من الطير والبشر ولا ترمي شيئاً منه إلى سلة الزبالة فهذا عندها شر من أبشع الشرور..

ولكنها وجمت ساكنة لا تريم، عندما هام بتلك الرائحة الجندي الأمريكي الذي دخل يوماً لتفتيش البيت، فلم تدعه إلى خبزها وجمدت في مكانها واقفة كالصنم.

دقائقَ عديدة ظل متمدداً في فراشه، وكان نام بشكل أفضل بعد ذهابه إلى شيخه في دار المسنين ليلة أمس، وها هو يستيقظ سعيداً راضي النفس تغمره هبوب رائحة الخبز الساخن بالطمأنينة فتزيده سعادة ورضاً. ولم يكن يريد للفكرة السوداء، التي كانت تقض مضجعه، أن تخرق تلك الطمأنينة وتعيده إلى محمود الذي أخطأ. ولكنه عندما نهض إلى الحمام ونظر إلى نفسه، رآى تلك العينين المبعثرتين لمحمود الآخر في المرآة، فعادت الغصة المرة لتعتصر قلبه وتدمر سكينته، وهي تعكس عذاب روحه من خلف وجهه، فهرب منه مسرعاً إلى غرفة نومه ثم خارجاً إلى الحديقة حيث كانت عمته تشلّع أقراص الخبز من التنور وترمي خمساً منها إلى صينية كبيرة من الفافون موضوعة على الأرض.

ثمة أمر غريب يراه ويتأمله في عمته الآن، يتمثل في أنها تبدو ظاهراً مثل ربة بيت بسيطة ومتفانية، بل من أهل اللـه وعلى نيّاتها. ولكنها في واقع الأمر قارئة عظيمة للحياة وشجرة معمرة يمتزج فيه الحزن مع المرح، والشموخ مع التواضع، والقوة مع البساطة. حتى أنه لا يمكنه أن يصفها ذات يوم بالعجوز المسنّة أو المرأة العاجزة بالرغم من تقدمها بالسنّ وامتلاء وجهها بالتجاعيد.. فعلاً. سيصعب عليه ذات يوم أن يصفها بواحدة من تلك الصفات

وهي التي، عندما تغني بصوتها الشجي، تبدو أكثر شباباً من كل النساء، وهي الساخرة على الدوام، التي تقول إن الدندنة بصوت عالٍ هي التي تترك أثراً أفضل في النفس من أثر النيزك الذي سيضرب الأرض في أية لحظة فلا يُبقي ولا يذر... مع ذلك، كان محمود يراها تبكي أحياناً وقت الغروب، وعندما يسألها عن السبب تقول إنها تتذكر أهلها الذين يتناقصون فرداً فرداً ولا تدري من سيتبقى في نهاية الأمر لكي تتحدث إليه وتشاركه حياتها. بكاؤها ذاك، كان يشبه حزن أبيه الذي يداهمه فجأة وهو في حالة انتشاء شديد، فكان الدمع يترقرق في عينيه والحسرة تخرج يائسة من صدره.. يجدهما محمود، وقد أورثاه تلك الصفات، يفسران له كيف يكون أصحاب المزاج الحاد للاستمتاع بالحياة والإقبال عليها هم أنفسهم أسهل الفرائس وقوعاً في مصائد اليأس العميق.

لما رأته عمته هلّلت به وضحكت ضحكتها الجميلة، فعادت إليه الطمأنينة وامتلأت نفسه بالراحة العميقة والسرور. قالت له وقد توهج وجهها بالحمرة من أثر النار:

- ارفعْ فوطتي من على الكرسي يا محمود واجلس هنا.. هيا اجلس.. اليوم مرت الإعرابية من شارعنا فاشتريت لك صحناً من القيمر الذي تحبه.. عندك دبس أليس كذلك؟

قال وهو يضحك:

- قطرة واحدة فقط.

قالت وأكمام ثوبها الأسود مرفوعة إلى أعلى:

- قلت و الـلـه إن هذا القيمر الزاهي لا يسوى شيئاً بدون خبز حار خارج تواً من النار. وها أنا انتهيت من الخبز قبل أن تستيقظ أنت من النوم. لاأدري كيف لم تقتل تلك الإعرابية لحد الآن وقد قتلوا حتى صاحب الفرن.

كانت الفوطة التي تضعها على رأسها قد أصبحت على ظهر الكرسي الذي يجلس عليه، وبدا شعرها الأشيب، المضفور في جديلتين ضعيفتين، ناعماً كشعر الأطفال.. فضحك لمنظرها الذي تراه عيناه من مهدها بدهشة طفل يرى الأشياء للمرة الأولى.

قال محمود، وهو لا يزال يضحك:

- عمة.. هل كنت ترتدين الفوطة أيام زمان؟

قالت وهي تطأطئ رأسها لتشلع آخر قرص مستوٍ من الخبز:

- أي فوطة؟ كنا في دنيا غير الدنيا.. نلبس التنانير القصيرة وسراويل الشارلستون، ونقصّ شعورنا بقصة منفوشة اسمها قصة الأسد.. لن تصدّق صورنا في الكلية لو رأيتَها ..

قال وهو يواصل نظره إلى الوردات التي تساقطت بعض أوراقها على الأرض.

- أيُعقل هذا يا عمتي؟

- لا أدري سوى أنه لم يكن يبدو نشازاً أو يستدعي أن ينظر إلينا نظرة اشمئزاز أو احتقار أو غضب.

كان محمود يحاول أن يسلو عن وساوسه بالكلام، لكنه فقد الرغبة فجأة في إتمام الكلام.

وكانت عمته تواصل كلامها، وهي تنهض وصينية الخبز في يدها:

- الآن.. تفتح التلفزيون فتشاهد البنات عارياتَ، وتمشي في الشارع فتشاهد النساء مكفّنات بالسواد. فانظر كيف أصبحنا نعيش، مثل زار الطاولي بعدة وجوه.

ثمة عصفور صغير يقف عالياً على غصن قريب يتبادل مع عصفور أصغر منه قطرة ماء..

وعطلة الامتحانات بدأت ولا أثمرت أبواب البيوت عن هند أو غيرها من البنات. البنات.. البنات.. لازمته الكلمة وراحت تتردد في رأسه.. ما أحلى البنات.. ونظراتهن الأليفة الوادعة.. وورودهن المزهرة.. وعطورهن الطيبة.. وفواكهن التي تنضج خلف أبواب البيوت فتجعلها جنة اللـه على الأرض، وما أحلى هذا الزقاق.. وبيوته الأليفة الوادعة.. وحدائقه المزهرة.. وما حكاية هذا البيت الذي يقابل بيتهم تماماً، والذي قال عنه أبوه إنه فارغ منذ سنوات طويلة؟.. ولكن محمود ينظر إليه الآن لأول مرة فيرى ستارة الهول وهي تتحرك قليلاً خلف نافذته مما أثار انتباهه وجعله يسأل عمته بعد أن دخل البيت:

- عمة.. هل عاد إلى ذلك البيت أحد؟

قالت عمته وهي تنظر إلى الطعام ملياً:

- لا أعتقد.. إنه فارغ منذ سنوات.

قال:

- ولكن ستارته تتحرك.

- لربما حركها الهواء.

في تلك اللحظة فز محمود مما قاله، ولم يكن ينتظر إلا وقع المفاجأة على عمته بعد زلة لسانه تلك، ولكن الغريب أن عمته لم تنتبه ، وإنما قالت له:

- كنا نسميه بيت البنات.. إذ كانت تسكنه ثلاث بنات جمالهن يفكّ المصلوب من حبل المشنقة كما يقولون في الأمثال، ولكن كان لهن أب معقّد جداً ولا يدعهن يخرجن من البيت أو يذهبن إلى باقي بيوت الجيران.. فأصبح جمالهن لعنة عليهن، وحرمهن ذلك الأب من رؤية الرجال كما في قصص ألف ليلة وليلة، وكان يختلق الحجة تلو الحجة كلما تقدم أحد الخطاب لطلب واحدة منهن، فلم يتزوجن حتى جاء أجله ومات وتركهن وحيدات في هذا المنزل.. ثم قامت الحرب وهُجرت البيوت من أصاحبها، فذهبت الكبرى، وقد

أصبحت عانساً، للعيش مع أقربائها، وسافرت الاثنتان الأخريان إلى الخارج .

- هل حدث ذلك بعد الحرب الأخيرة.

- كلا

- أي حرب إذن؟

- و الـلـه حقك.. فكل يوم حرب.

15

الماء والطين

غادرت عمته البيت، وظهرت مذيعة الأخبار الجميلة ترتدي قميصاً لونه أخضر كورق الشجر، يتوارى خلفها رجال ونساء يموتون بالعشرات وتتبعثر أشلاؤهم الحمراء في الشوارع والساحات.. بل أمام الجوامع والكنائس، فيهرع عمال المطافيء والنظافة لجمعها بعصي المماسح والمكانس ومن ثم لملمتها في أكياس يصفّونها بالعربات وسيارات الإسعاف. قبل قليل كانوا يمرون من الحدائق ويسعون في الطرقات وهم الآن جثث مكومة في الحوض الخلفي لسيارة بيكب.

بعد الأخبار، ظهرت مخلوقات بشعة عملاقة الحجم ومقرنصة الجلود تخرج بالعشرات من مياه بحيرة زرقاء قال عنها المذيع إنها التماسيح، فاشمأز محمود وقال: "أيُعقل أن توجد داخل تلك المياه الرقراقة الزرقاء كل تلك الزواحف المرعبة ذات الوجوه البشعة التي تثير الرهبة والقرف؟". عاد ضيقه الأول إليه، فوضع قدح الشاي على المنضدة ثم وقف قرب النافذة وأرسل بصره إلى الغيوم وتمنى أن يرى البرق يومض ويتعرج فتتصدع السماء، ثم يهطل المطر الغزير وتعم الفوضى على الأرض وتغرق بالمياه.. سمعه الجو المدلهم واستجابت له الغيوم بمطر غزير عارم ظل يسقط من السماء ثلاث ساعات متتالية أشرقت الشمس بعده مرة أخرى،

وأصبح المطر نثياً يؤرجحه الهواء، فتمنى محمود أمنية أخرى بأن يرى ألوان الطيف السبعة منعكسة في صفحة السماء على شكل قوس قزح كذلك الذي يراه الآن في كتاب الألوان.
سمعته قطرات المطر فأرسلت ألوان الطيف السبعة أحمر.. برتقالي ..أصفر.. أزرق.. أخضر.. نيلي... بنفسجي، وهي نفسها التي اجتمعت في كتاب الألوان لتكوّن اللون الأبيض. ومثل كل مرة يهطل فيها المطر أو يدخل في وَشَكان الهطول، يتذكر محمود (أنشودة المطر) التي اختارها لهم مدرس اللغة العربية في معهد المكفوفين للحفظ، ولحنها لهم مدرس الموسيقى الشرقية على شكل أغنية كلما افتقد أمه في ليالي المطر والبرق والرعد رددها مع نفسه بصوت خفيض وهو بين النوم واليقظة:

تثاءب المساء، والغيوم ما تزالْ
تسحُّ ما تسحُّ من دموعها الثقالْ
كأن طفلاً بات يهذي قبل أن ينامْ:
بأنّ أمه- التي أفاق منذ عامْ
فلم يجدها، ثم حين لجّ في السؤال
قالوا له: غداً ستعودْ..
لا بدّ أن تعودْ

لكن أمه لم تعد ولن تعود.. وكم كان صعباً أن لا يكون لها وجود على الإطلاق في حياة طفل صغير. كان إذا اشتد عليه الغياب

وافتقد بقوة أمه التي ماتت بالسكتة القلبية، تساءل عن عماه وعن هذا الظلام وعن معنى أن يوجد في هذه الحياة معذّباً بهذه الطريقة الفريدة العمياء.. على الأقل لو كانت الأم موجودة، ولو كان ظلها حاضراً في البيت لناغته بلغة الأطفال كما تفعل كل الأمهات، وهدهدته وخفّفت عنه وقالت له ما دامت هي معه فإن كل شيء سيكون على ما يرام.
لم تفارقه الأفكار السوداء قط منذ أن كان طفلاً يتقلب بين الأكل واللعب. سمع جدته تقول إن الدنيا لا بد ستنقلب ذات يوم ويختفي الناس من الوجود. جعله ذلك يعتقد أن السماء ستسقط على الارض كلما هبت عاصفة شديدة أو ادلهمت السماء بالسحب الداكنة. ويُخيل له أحياناً أن إحساساً بالشيخوخة داهمه أول مرة عندما كان في الثامنة من العمر، فسأل أباه سؤالاً لا يزال الأب يتذكره بعد عشرين عاماً:

- ليل ونهار.. نهار وليل.. ما هذا التكرار الذي لا ينتهي؟ ما هذه الدوخة يا أبي؟

الآن، وقد كبر وعرف أنه عابر في الوجود مثل سحابة صيف، أصبحت أفكاره أكثر ظلاماً من قبل.. لا ينفك يهرب منها إلى تلاوة القرآن أو الدرس أو الحفظ أو عزف العود.. ولكن إحساسه قط لا يتغير بأنه منشطر ومتصارع مع نفسه وبأن هناك محمودَيْن يتقاسمانه.. الأول الفاني الذي يمشي على الأرض الباردة ويستمتع بوردها وخبزها وأكلها، والثاني روحه السماوية التي تحلق فوقه

لتصيبها أبسط الشظايا وتجرحها بأصعب الجروح، "فليتني أعرف تلك المرأة، كيف جاءت ومن أين وهل سأكون معها في النار يوم الحساب كما أحرقتني بالنار على الأرض؟.. أم ستكون وحدها هناك ما دامت هي من أغوتني وأكلت رأسي وراودتني عن نفسها؟ ليتني أعرف تلك المرأة من تكون".

تلك كانت أمنيته الثالثة التي تحققت في يوم عاصف وممطر.. عندما انشقت الستارة عن فتحة بين شطريها وظهرت تلك المرأة واقفة مع أبيه قرب الباب الداخلية للبيت.. فتأكد هذه المرة وهو يراها مرة أخرى بأن هذه المرأة التي جاءت إليه قبل ثلاثة أيام هي نفسها المرأة التي كانت مع أبيه في المرة الأولى ومعه الآن أيضاً مرة أخرى تريد الدخول إلى البيت. لا يدري هل ظن أبوه أن موعد التمرين المعتاد يوم الأربعاء سيترك له البيت خالياً للقاء عابر مع تلك المرأة التي يقول عنها إنها زوجته، أم أنه كان يقوم دائماً بمثل تلك المغامرات مع نساء غيرها والابن لا يدري؟.. وإذا كانت هذه المرأة هي زوجة أبيه كما يدّعي، فلماذا يأتي بها إلى هذا البيت يسرقان الحب من خلف أبوابه؟.

هي المرة الأولى من تلك المرات الثلاث، التي ينتبه إلى شكلها جيداً ويجد أنها ترتدي تنورة سوداء وقميصاً مخططاً ويرى قرطين ذهبيين في أذنيها وكحلاً فاحماً حول عينيها الكبيرتين. عيناها تعكسان تعبيراً متبقياً من نظرة سابقة. أما عمرها فحاول تقديره ولم يستطع... فمها يبدو شريراً ولا يعرف لماذا يوحي بالشر

الأكيد.. منذ أن أبصر والأفواه هي التي تدلّه على أعمار البشر وأرواحهم وأفعالهم، فهل خلق الـلـه الأفواه كعلامات تدل على الخير أو الشر، أم أنها تنمو وحدها على شاكلات أصحابها وأفعالهم.. ولكن تلك المرأة لا زالت جميلة بالرغم من أفعالها الشائنة.. فهل الجمال لا يفرق بين الأخيار والأشرار؟ وهل تكون تلك المرأة واحدة من البنات الجميلات التي قالت عنهن عمته إنهن كن يسكنّ في البيت المقابل قبل أعوام، ربما إحداهن عادت من غربتها وسكنت البيت القديم نفسه لتعيد مع أبيه قصة حب قديمة؟.

انفتح الباب ودخل الاثنان إلى البيت، وبدت المفاجأة شديدة على وجه أبيه عندما رأى ابنه موجوداً في البيت، فأطلت من عينيه نظرة الحرامي الخائف الذي وجد نفسه فجأة في موقف لم يحسب له حساباً. أما هي فلم تكن الورطة بادية على وجهها، وتعمدت أن لا تصدر صوتاً يدل عليها، واكتفت بالنظر إلى وجهه دون أن يبدو عليها أي ارتباك أو حرج أو خوف.

قال الأب، وقد بلغ منه الحرج أي مبلغ:

- ظننتك قد ذهبت إلى تمرينك في بيت عصام الملحن.

لا يخاطبه أبوه إلا وهو محرج دائماً، فأجابه محمود:

- كنت على وشك الذهاب.. ولكن من معك؟

خرجت تتمة الجملة من فمه بطريقة عصبية حادة دون أن يقصد، فلم يتراجع عن السؤال أو يعيده بشكل جديد، وعندئذ شعر

الأب بأن محمود قد تشمم رائحة ما وأنه بحاجة إلى تصحيح الموقف، فقال بصوت ضعيف وهو ينظر إلى مكان غير محدد في وجه ابنه:

- هذه زوجتي.

فلم يعلق محمود، ولكنه هاج بعد لحظات وراح يضرب الحائط بيديه ثم خرج ضاجاً دون أن ينتظر مزيداً من الكلام، وأقفل عليهما الباب بالمفتاح بعد أن خرج. قرب الباب الخارجية للبيت ألقى نظرة خاطفة على البيت المقابل.. بيت البنات.. البنات البنات.. فرأى الطائر الأسود الذي عرف أنه الغراب ينعق قاق قاق قاق، ثم يطير من على هوائي التلفزيون ويحوّم دائراً في الفضاء، ثم يعود يساراً ويحط فوق نخلة مقطوعة الرأس، فقال محمود يا غراب يا غراب! ألم تر أبي؟. سمعه الغراب فصاح عاق عاق عاق، فتطيّر محمود من نعيقه واعتبره شارة شؤم تدل على حال أبيه طائر السمندل الذي يستلذ بالمكث في النار وليس على حال ابنه طائر الجنة..فمن جنى على من؟ "هو أو أنا" تساءل شقياً، ولكن يا لدهشته واستغرابه! فإنه لم يبالِ.. هدأ فجأة وزال عنه الغضب ثم تمنى الطيران في الفضاء الرحب ومضى يدندن مع نفسه لحْن أغنية عن الوطن كان يتمرن عليها وهو يقول لنفسه إن الشمس البيضاء ستشرق من جديد فتمحو كل هذه الفوضى وتعيد له كل شيء جميل يراه أو يمكن أن يراه في هذه الدنيا. وسقطت خصلة من شعره على جبهته، فحرص على أن يعيدها إلى مكانها قبل أن يخرج من بيته

ويراه الآخرون، بل بالغ في تمسيدها وترتيبها لكي لا تحطّ، بسقوطها، من شأنه كما فعلت قطرة الدبس مع المعري الأعمى، ولكن ما هي إلا لحظات حتى أصبح في نهر الشارع وبللت برك الماء حذاءه بالماء والطين، فعادت الوساوس تفتك به وقال لنفسه: "إذا كان هذا هو الماء، فكيف يكون البحر المتلاطم؟.. وإذا كانت ثلاث ساعات من المطر قد أغرقت الدنيا بكل هذا الوحل والأوساخ والحجارة، فكيف يكون ركوب البحر الذي لا قرار له؟ وكيف تأمنه البواخر والسفن عندما يصل ذروة الهياج؟

16
البيت والمتاهة

كان العالم متناهياً في الحلم، فأصبح لامتناهياً في اليقظة، السماء تطوف بها جرادات عملاقة الحجم، والطريق من ساحة لأخرى تمر به النساء المحجبات اللواتي نادراً ما يعتنين بمظهرن، ويخيل له أن ذرات الغبار تنطلق من ملابسهن التي تلامس الارض الوسخة وتكنسها بأذيالها، بينما آخر ما يتذكره من ملابس النسوة قبل عماه هو الحقائب والعطور والفساتين ذات الورود والياقات المفتوحة عن الأذرع والسيقان.. لو قال لشيخه الآن إنه يجد اولئك النسوة أجمل وأقرب في نعومتهن إلى مايجب أن تكون عليه المرأة فعلاً لثار عليه وقال له إن كل ذلك عورات لا يجب الكشف عنها ولا يجوز.

مر رجل خلّف عطراً طيباً وراءه، فتذكر محمود أستاذ العود في معهد المكفوفين، ويُدعى ألبير، صوته ناعم وتتضوع منه دائماً رائحة كعطر الليمون.. وقد قالت عمته إنه مات على الأغلب، ولكن محمود قرر بدافع من تلك الرائحة العدول عن الذهاب إلى التمرين، والذهاب من فوره إلى المعهد للسؤال عنه والتعرف على مصيره. في الطريق إلى هناك انعطفت به سيارة الأجرة خلف طريق خربة تحاذي مخازن للبضائع قريبة من سكة قطار، فاعتصرت قلبه غصة قاسية ذكرته بصوت القطار الذي سمعه

يأتي من بعيد عندما كان ذاهباً مع باقي الطلاب إلى ساحة الاحتفالات لإنشاد نشيد عن الحرب، فتوقف الباص بهم، في هذه البقعة على الأغلب، وأنزله السائق في أرض خلاء لقضاء حاجته، ففزع محمود وتشنجت عضلاته من الطريقة التي مد فيها السائق يده إلى سرواله، ومنذ ذلك اليوم وهو يرتاب بكل سائق وينفر من ملامسة يديه.

ها هو الآن يريد أن يرى الجميع قبل أن يروه، لأنهم قد فعلوا ذلك بما فيه الكفاية وحان الوقت لكي يراهم على حقيقتهم ويتأملهم بإمعان ليكتشف كيف يكون الأمر أن يراهم وهم لا يعلمون.. لم يكن يعلم أن وجوه الناس مليئة بالتجاعيد وخربة إلى هذه الدرجة، لأن آخر ما يتذكره قبل عماه هو وجوه أطفال نضرة جميلة خالية من الندوب والتغضنات، بل إن لونها نفسه كان أكثر صحةً وبياضاً. ولكنّ هذا السائق ذا وجه بشوش شبيه بوجه عمته.. يوحي بالبراءة بالرغم من امتلائه بالتجاعيد، وقد أرتاح إليه إلى الدرجة التي جعلته يروي له قصته مع بصره الذي استعاده فجأة قبل أسبوع، فهلّل السائق وكبّر وقال له إن صلوات الشكر لا تكفي وإن عليه أن يذهب ليصلي في الكعبة شاكراً الـلـه على هذه المعجزة...

وطوال الطريق راح يطلق من فمه أصوات كالتكتكة وينصحه بأن يلزم بيته إذا لم يجد أحداً يرافقه عندما يريد الخروج لأنه سيجد الشوارع قد أصبحت كلعبة الحية ودرج .. في المعهد أخبروه بأن ألبير حي لم يمت وأنه يسكن في دير المار متي في

الزعفرانية ..وفي الطريق إلى هناك كانت الشوارع تعترضها بعض القطط والكلاب المدهوسة التي تتدلى أحشاؤها على الطرقات. صمتَ.. امتدتْ يده إلى رأسه.. إلى عينيه.. ثم إلى النافذة.. فتحها.. تنفس بعمق فلم يستنشنق سوى الغبار.. لم يكن هناك فرح او حزن ولا شيء سوى الغبار، وهؤلاء البشر الذين يتحركون في كل اتجاه يذهبون ويعودون في دروب الموت وهم لا يبالون.. يظنون أنهم أسياد هذه الارض والسماء، فيدهسون ويقتلون ويمضون مسرعين دون أن يعتدّوا بشيء.. عيونهم مطفأة بلا بريق وأفواههم تخجل من الابتسام في مدينة عجوز لا تعرف سوى الموت والدمار.

نزل من سيارة الأجرة على مبعدة مسافة من الدير بسبب الحواجز التي وُضعت لحمايته، ولم يكن للمطر من أثر في المكان، فوقف محمود خارج السيارة ليدفع النقود، ولكن سائقها البشوش أصرّ على البقاء معه وانتظاره حتى نهاية المشوار، قال للسائق:

- إنزلني هنا.. سأمشي ما تبقى من مسافة..
- تقصد ستطفر ما تبقى من مسافة. ما الذي جاء بك الى هنا؟
- أبحث عن أستاذي.
- هل هو مسيحي؟
- نعم.
- هل تعلم أن هذا الدير فتشه المفتشون الدوليون أيام طارق عزيز؟
- لماذا؟

- كانوا يبحثون فيه عن أسلحة دمار شامل.. والبرادعي الملعون سوّاها حزورة.. لم يقل إنها موجودة ولم يقل إنها غير موجودة..

- وهل عثروا عليها؟

- لا أعتقد.

ثم ضحك وقال:

- حتى طارق عزيز ما خلص منهم.

لا يعرف عن هذا إلا ما قاله له شيخه عبد الرحمن.. لا أحد يخلص من أحد منذ اللحظة التي هبط فيها آدم من الجنة، والأسوار مدكوكة في هذه الأرض في كل زمان ومكان. وإذا كانت الأفيال هي التي هدمتها فعلاً، كما قال له شيخه عبد الرحمن، فذلك لأنه لم يتم جملته تلك ولم يقل له من الذي سمح للأفيال بالدخول ومن سمح لها بالتجوال في هذه الارض التي كانت أرض السواد والآن صارت بلا بياض ولا سواد ولا لون معتبر غير هذا الغبار.. الغبار.. الغبار.

ابتعد السائق قليلاً عن الطريق، وقال له إنه سيشرب الشاي عند المقهى القريب وسيهرع إليه عندما يراه يخرج. شكره محمود ورجاه الانصراف، فلعله يتأخر، فقال له السائق الذي أثرت فيه قصة العمى كثيراً، إنه سينتظره هناك.

قرب الباب كان ثمة طفل وسخ الهيئة واليدين ولكنه ملون العينين بوجه مضيء، يرتدي فانلة صفراء ويمسك بطائرة ورقية يبدو أنها

أخفقت في الطيران ويحاول لملمة خيوطها التي ضاعت والتفّت بين أجمات الأشواك والعاقول. عندما رآى محمود قال له :

- عمو إلزم لي الطيارة.

وهو صغير رماه بعض الأطفال بالحجارة وضحكوا على عماه وقلة حيلته عندما حاول الإمساك بخيط طائرة. محمود الآن ينظر إليها.. يتحسسها بأصابعه ويتفحصها بعناية متذكراً أنه كان فيما مضى يعتقد أن الطيارات الورقية تطير بخيوط أصغر وأبسط من هذه الخيوط. راح الولد يتتبع مسار الخيط حتى عاد وهو يحمل بكرة يلف عليها بيديه المتسختين خيطاً سميكاً أصفر اللون. سأله محمود:

- ما اسمك؟

- فادي.

- طيارتك كبيرة جداً، يا فادي.

- عمو، ميخالف تلزم لي الطيارة الى أن تطير؟.

- إي ميخالف.

ثم ركض فادي وشد طائرته الورقية حتى بلغت السماء ولم تسقط.

داخل الدير الهادئ بشكل غير مألوف، مر رجل دين يرتدي قفطاناً أسود بأزرار وردية وحزام وردي، ويعتمر طاقية وردية غامقة اللون. ابتسم الرجل لمحمود، ولم يكن قد رآى أحداً غريباً يفعل ذلك معه من قبل. ثم توقف عند بعض الراهبات وهن يبذرن

البذور في تراب محفور في الحديقة.. تقدمت راهبة إلى الرجل ذي القفطان الأسود وقالت له:

- أبونا.. ألن نضع لعابة خضرة في هذا المكان؟.. لعل العصافير تأتي من جديد وتملأ الدير بزقزقاتها.

ثم تقدمت من محمود وقالت:

- تفضل إلى القداس.

دلف من باب كبيرة مرسوم عليها الصليب إلى الداخل وجلس على واحد من مقاعد خشبية مديدة ونظيفة تتقدمها ظهور محفوظة فيها كتب صغيرة مرقومة بالجلد، ووجد أطفالاً بمسوح الرهبان يرددون ترتيلات:

كنتُ في ظلام
أطلب السلام
والآن ها قد أتيتَ الي سيدي رب السلام
يا يسوع يا حبيب
قد تركتَ السماء من أجلي
كي تكون لي نوراً لقلبي
أيها الرب يسوع
يا عجباً
من أجلي جئت يا رب يا يسوع
يا عجباً

مخّلصي قد مات من أجلي
وسفك الدم الزكي فدا لخاطئٍ مثلي
أحبني ربي، نعم أحبني
يسوع قد أحبني
لذا مات عني

تساءل محمود مع نفسه: "كيف يولد الرب ثم يموت؟ أليس هو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد؟". كاد أن يخرج من القداس إلى الحديقة لولا أن بدأت خطبة الرجل الذي اعتلى المنبر، وكانت عن الخطيئة:

"وقد استخدم الـلـه مبدأ النسب لصالح الإنسان، فمن خلال ذلك المبدأ قام الـلـه بنسب خطايا المؤمنين ليسوع المسيح، الذي قام بدفع أجرة الخطيئة ومات على الصليب. وبنسب خطايانا إلى المسيح، عامل الـلـه المسيح كأنه الخاطيء برغم أنه كان بلا خطيئة، وجعله يموت بدلاً عن خطيئة كل من يؤمن به. ومن المهم أن ندرك أن الخطيئة نُسبت اليه، ولكنه لم يرث الخطيئة مثلنا من آدم. لقد حمل عنا عبء الخطيئة، ولكنه لم يصبح خاطئاً. فطبيعته البارة الكاملة لم تتأثر بالخطيئة. لقد تحمّل خطيئة كل من يؤمن به برغم أنه لم يرتكب أي منها."

كان المكان هادئاً ونظيفاً إلى أبعد الحدود، ولا علاقة له البتة بالفوضى العارمة التي رآها في الشوارع منذ أن بدأ النظر إليها.

يبدو له الآن كما لو أن كل يوم في هذا المكان مقدس وهادئ وجميل. إن مجرد النظر إلى المكان يبعث السكينة في النفوس، ولكن ذلك الرجل أبونا، مثل شيخه عبد الرحمن، سائر في الارض سير الذاهب إلى السماء حاملاً بيده مفاتيح أزلية لكل باب عتيق وها هو ينسب الخطيئة إلى المسيح بالرغم من أنه كان بلا خطيئة مثلما نسبها شيخه عبد الرحمن إلى إبليس الذي كانت خطيئته هي رفض السجود لغير الـلـه بينما ابن آدم حسب عمته هاجر هو الأشد شراً من كل الكائنات على هذه الأرض ... خرج تاركاً خلفه أصواتاً تغني: اسحقْني يا سيّدي سحقًا، ففي الانسحاق أريجٌ يفوح، وعطر يسوح، إنّ الزهور والرّياحين والورود، إنْ هي انسحقت تحت ثقل الأصابع، فاحت وملأت الأرجاء شذىً وعِطراً.

مرّ بإحدى الراهبات اللواتي كن لا زلن يبذرن البذور في الحديقة، وسألها عن ألبير فقالت له:

- أيهما تقصد؟ ألبير قرياقوس أم ألبير نجيب- ثم استدركت من فورها وقالت- على أية حال، الاثنان قد هاجرا.

شعر بالراحة بان أستاذه ألبير قد هاجر وبأنه ليس ميتاً في النار، وجعله ذلك يشعر بالرغبة في العودة إلى القداس والاستماع إلى التراتيل الموسيقية التي كانت ألحانها تشبه أغاني فيروز حيناً وتلبية الحجاج على جبل عرفة حيناً آخر، والأطفال يواصلون غناءهم عن الانسحاق ويقولون:

"اسحقني يا سيّد، فأنا رهن يديْكَ، يديْكَ وحدكَ، فأنا معك وبك قويّ: يسامح ويحنو ويشفق ويداوي ويُبلسم ويبكي ويتألم من أجل الغير، ويُحبّ حتى المُنتهى.. أنا بك ومعك شامخ، عزيز النَّفس ملكٌ."

قال لنفسه: ما أهدأ هذا المكان وما أجمل صوت الأرغن الصداح.. فهل الكلام هو الجميل فعلاً؟ أم أن صوت الموسيقى هو الذي يجعله يبدو جميلاً؟. في تلك اللحظة من الخشوع دوّى صوت انفجار رهيب تكسرت على إثره زجاجات القاعة وتراكض الأطفال في كل مكان، وماهي إلالحظات حتى حومت الطوافات في السماء وهرعت الراهبات لمساعدة بعض الساقطين من الأطفال على النهوض، فنهض محمود من مكانه ولم يكن قد أصيب هو أو غيره بأذى، وظهر الرجل ذو القفطان الأسود والطاقية الوردية من جديد، فقالت له الراهبة وهي ترسم على صدرها علامة الصليب:

- لا تقلق يا أبونا.

وقال محمود لنفسه:

- ولا تخافي، أيتها العصافير.

سمعته العصافير، فعادت توَكر صامتة على أيادي الأشجار وسعفات النخيل، ولكن عندما أصبح محمود خارج الدير وقعت عيناه على الأرض.. رأى حيواناً مدمى يشبه ثعباناً مقطوعاً.. إنه يتحرك. تراجع محمود إلى الوراء.. نظر إليه، فوجد أشلاء طفل ممزقة ومدماة قرب باب الدير.. كان ذلك فادي.. لا يزال يرتدي

فانيلته الصفراء ويداه ممسكتان ببكرة الحبل الموصل بطائرته الورقية، ولكنه كان بلا رأس ولا ساقين. راح محمود في تلك اللحظة الرهيبة يبحث، بلا وعي، عن رأس فادي بين أجمات العاقول متوهماً أنه يمكن إعادة الحياة لفادي الذي لم يعد له وجود.

السائق الذي نصحه بالصلاة في مكة لم يكن له وجود أيضاً. تفجر المقهى وتهدّم، وعندما ذهب محمود للبحث عنه منعته الشرطة من الاقتراب، فغاب عن نفسه، ولم يعد يفكر في مصيبته ولا في أي شيء آخر مما جاء من أجله بل لم يعد يدري لماذا جاء؟. انفجرت تلك الساعة في حياته هي الأخرى وتحولت إلى أشلاء تبعثرت أمام هذا الموت المفاجئ لشخصين عرفهما توّاً وارتبط معهما برباط عفوي جميل. ليته لم يستأجر تلك السيارة ويتسبب في مقتل السائق الذي أتى به للبحث عن ألبير.. ليته لم يعدل عن التمرين ويقرر المجيء إلى الدير ليبحث عن أستاذه البير. ليته لم يخرج غاضباً من البيت ويمشي في الشوارع فيذكر أستاذه ألبير. ليت أباه الخاطئ ما جاء بتلك المرأة اللعينة إلى البيت، فجعله يخرج منه ويهيم في الارض لحين تشمم رائحة الليمون فتذكر أستاذه البير.. ليته بقي في صلب أبيه وما جاء إلى تلك الدنيا ولا سكن منازلها ولا رأى أزهارها وأشجارها. ليتها ما قُدّرت له منذ الأزل هذه اللحظة التي تذكر فيها ألبير واستأجر السائق وتوقف للحديث مع ذلك الطفل؟.. ليته ما قُدر لفادي أن يتمزق إلى دماء وتراب

ويبقى طفلاً إلى الأبد؟.. كان سيكون بخير لو بقي في عالم الغيب ولم يأت الى هذه الدنيا؟.. ولكن كيف سيكون في وضع أفضل من لم يُخلق أساساً ولاسعت إليه الحياة الخضرة الجميلة.. ليته لم يعرفه ولا توقف للحديث معه ولا عرف اسمه. فادي وأية مفارقة أن يكون الطفل الذي تمزق توّاً وأنساه نفسه ومصيبته قد افتدى بموته خطيئته، لأن محمود في تلك اللحظة كان قد هانت عليه تلك المصيبة أمام الأشلاء التي تمزقت وتبعثرت في كل مكان، بيد أن روحه ضاقت حتى كادت أن تغيب فالتقت يميناً ويساراً وهو لا يستطيع أن يشعر حتى بالحزن من شدة الاختناق فقرر الاتصال بعصام والذهاب لرؤيته في الحال.

17

الطوق والحزام

في الحال حدس عصام أن ثمة مصيبة قد حصلت أو أن أحدا قد مات أو تفجر أو خُطف، وقال له تعال على الفور. وبعد ساعتين كان محمود قد روى لعصام كل ما حدث منذ لحظة استعادته لبصره وحتى لحظة الموت المأساوي لفادي والسائق. وجد عصام صعوبة في تصديق ما حدث.. اغتم وابتهج.. وكانت البهجة بما حدث لمحمود صديقه أكبر من الحزن على موتى لا يعرفهم.. ولكن ما سمعه توّاً أعاد إليه فكرة قديمة عن مكان بعيد يذهبان اليه عندما يحين الوقت. قال عصام:

- ماكان يجب أن تذهب لوحدك يامحمود إلى هناك ؟؟

- كنت أريد الهرب من البيت فوجدت نفسي أبحث عن أستاذي ألبير..

- الحل في السفر، يا محمود. الحضور هنا أصبح صعباً للغاية.

- إذا ما قررتُ السفر، فالمكان الوحيد الذي أفكر فيه هو الذهاب الى مكة للحج والتوبة.

- ليس بعد، يا محمود.. ما لك تتصرف كسحلية عجوز؟!. هل شيخك هو الذي أملى عليك ذلك؟

- كلا، يا عصام ؟ ما لك وشيخي؟! إنه إنسان عالم وشيخ جليل.

- فهل تعلم كيف مات ابنه؟

- نعم. لقد قضى في انفجار.

- كلا، لم يقض في انفجار، إنما فتش الأمريكان بيته، فعثروا فيه على سيديات عن الجهاد، واعتقلوه. ولما خرج من المعتقل فجّر نفسه قرب مطعم الغربال. فهل هذا عدل، يا محمود؟

- لا ليس عدلاً..

تلعثم الهواء في صدره فأخرجه بقوة، ثم قال:

- واعتقاله ليس عدلاً أيضا.. من هم ليقرروا أن سيديات الجهاد جريمة يستحق صاحبها السجن؟.. لماذا يفتشون بيته أصلاً، يا عصام؟.. الآن عرفت لماذا جعل بقية أبنائه يسافرون بعيداً..

- لأنهم كانوا مطلوبين .

- هذا أمرّ من ذاك.. فأين المفر؟

- في السفر، يا محمود .. لم تر شيئاً بعد من الدماء والأشلاء. إن الناس تموت بالجملة كل يوم، وقد رأيت بعيني هاتين رجلاً يمشي مقطوع الرأس لأن شظية الانفجار أطارت رأسه فظل جسمه يمشي بعد ذلك عدة ثوان.. فقل لي بالله عليك ما ذنب هؤلاء الناس؟ ومن هو الخاطئ؟ السماوات أم الأرض؟.

كان ذلك لغزاً جديداً لمحمود الذي تذكر علبة العاج ولم يجد في ذلك التذكر المعنى أو الدافع لما يحدث.. تلك هي قصة الفيل التي رواها له شيخه عبد الرحمن قائلاً إن الذي أرسل الفيل هو السبب في كل ما نراه من فظائع وأهوال.. فقد أدخله إلى بيت ملئ بالفخار فأفزع أهله وفزع وحطم في طريقه كل شيء، بينما كان

يكفيه أن يرسل لنا سن الفيل في علبة عاج. فإن كان الأمر كما يقول شيخه فمن الذي أتى بالفيل ولماذا؟ وهل فعل هذا مع أحد غيرهم أم أنهم هم الذين سمحوا له بذلك، وفتحوا له أسوار المدينة بجهلهم وغبائهم؟. سيقول الناس إن السبب الوحيد في تمزيق فادي إلى أشلاء هو أنه كان موجوداً في المكان الخطأ، أو سيلعنون القاتل لأنه كان موجوداً في المكان الخطأ، بينما الذي عرض فادي للموت هو الشر الذي يراه القاتل خيراً أكيداً فتجعله تلك الفكرة غافلاً عما سواها... عندما كانت تلك الإنفجارات تطال أرتال المحتل فيقتل فيها أشخاص أبرياء كان شيخه يقول له إن هذا شر عرضي مكروه يؤدي وظيفة في خدمة الخير فالمؤمن لا يجود بنفسه إلا في ساحة الجهاد ضد المحتل.. ولكن محمود تساءل أين هو الخير فيما حدث للمقهى والدير قبل قليل؟.. وكيف تداخل الخير مع الشر على هذا النحو الجهنمي الرهيب الذي يشبه الجحيم؟.. يجب أن يسأل شيخه عن ذلك ويقول له أين العدل فيما حدث؟.

قال عصام:

- أسرِع، يا محمود.

ظن محمود أن مكروهاً قد حدث، فتلفّت حواليه ولكن عصام استدرك وقال:

- يجب أن لا تموت قبل الأوان.. يجب أن تستحصل جواز السفر وتفلت منه.

- مِن ماذا؟

- من هذا البلد العجيب.. لم يعد يناسبنا هذا المكان الفاشل.. ألا تراه، عاماً بعد آخر، يصبح أكثر بشاعةً.. أرأيت بلداً في العالم لا توجد فيه سينما؟
- لا يمكنني القيام بذلك.. أريد الحج أولاً.
- أنا أُحدّثك عن الهجرة وأنت تحدثني عن الحج.. من وضع تلك الفكرة في رأسك؟ لماذا تتصرف كرجل دين، يا محمود؟
- لا أتصرف كرجل دين؟. ألا بعداً لمديَن كما بعُدت ثمود.
- أنا لست كافراً، يا محمود.. أنا أريد الخلاص من هذا الوضع المرعب عن طريق الهجرة. هناك مهرجان للإنشاد الديني في دبي سنذهب إليه، ومن هناك أذهب أنا إلى مفوضية اللاجئين في عمّان وتذهب أنت إلى الحج. جهز لي أوراقك من أجل استصدار الجوازات.
- ولكن هل الأمور بهذه البساطة؟ من سيعطي عراقياً فيزا إلى السعودية من الإمارات.. راح ذاك الزمان.. وسأ قدم على العمرة أو على قرعة الحج من هنا.
- يصدرون فتوى بأن الحج بدون تصريح حرام، ولكن السكن في برج المقام ذي الإطلالة المميزة على الكعبة حلال؟
- الـلـه هو الذي سيحاسبهم على ما يفعلون.. وأنا ذاهب للتوبة لا للسكن في منتجع.
- لا أوافقك على ما تفعل، يا محمود.
- يجب أن أفعله.
- ولكن ستأتي إلى مهرجان الإنشاد في دبي، أليس كذلك؟
- نعم سآتي ثم أعود إلى بغداد.. إن سعينا شتى.

- يوما ما ستشعر بما أشعر به الآن، يا محمود.

مرة أخرى يجد محمود وجه عصام كأنه وردة تفتحت للتو لم تشق الغضون فيها خطاً واحداً، ولم تدخل إليها ذرة غبار واحدة. كانت عيناه تستبقان الضحك وهو يواصل التحديق في عيني محمود وكأنه ينتبه للتو إلى حدوث معجزة استعادة محمود لبصره، فيضحك ويقول:

- يا لله، يا محمود.. هل أنت تراني الان؟

- نعم.

- بالألوان؟

- اشتعلت الألوان كلها، وقبل ذلك لم يكن سوى البياض.

- أتقصد السواد؟

-بل كان بياضاً.

- وهل تعرف ما لون قميصي؟

- أحمر.

- كيف توصلت إلى ذلك؟

- هل نسيت أني كنت أرى عندما كنت طفلاً، ولكن هل أنت شيوعي تعمل في فرقة للإنشاد؟

ضحك عصام بشدة:

- وهل كل من يرتدي الأحمر شيوعياً؟ لا يا سيدي، أنا ملحن في فرقة الإنشاد ولكني لست متديناً.

- علمت ذلك من زمان طويل.. أنت صديق الجميع.

ضحك عصام وقال :

- نسيت أن أخبرك عن صبا.. الفتاة التي كانت تنظر إليك في الباص.. سألتني عنك.. فهل ستسأل عنها؟

- لا أشعر بالرغبة في ذلك الآن.

انحدرا من تحت جسر الصرافية إلى الطريق المؤدي الى الكسرة ثم شارع المغرب، فمرّا بمطعم الغربال الذي كان يبيع رؤوس الأغنام وأمخاخها المطبوخة.. وجدوه مقفلا والخراب يحيط به من كل مكان، فقال عصام لمحمود:

- هل كان الانفجار الذي حدث في الدير بفعل رجل انتحاري أو سيارة مفخخة؟

قال محمود:

- سمعت الشرطة تقول إنه انتحاري.

- لعله كان معتوهاً أو أعمى.

ضحك عصام هذه المرة، ولم يلطم على جبهته، فقال محمود:

- شيخي لم يكن، في عماي، سوى طوق نجاة.

وقضى الاثنان ما تبقى من النهار سيراً بين الأزقة المؤدية إلى بيت محمود، ومع حلول المساء كانت الوحشة قد لفت الكون بغشاء خانق من الغم يوحي بأن كل شيء ليس على ما يرام، وأن إسراعهما في المشي إلى البيت هو خلاص من خطر متربص في الزوايا

يتحدث إليهما بإطلاقات نارية متواصلة تنطلق هنا وهناك. قال عصام:

- حاذرْ السير قريباً من حافات الأرصفة،.. العبوات ما زالت تزرع هناك.

- الآن تخبرني بذلك، يا عصام؟ الأعمار بيد الـلـه .. العمر واحد والرب واحد.

18

الشك واليقين

المطر، الذي كان يتشممه وهو أعمى في رائحة التراب المبلول، يراه الآن بصورته الأجمل عندما تمنى من اللـه أن يهطل قبل حلول الصيف، فسمعته السماء وأمطرت مدراراً يوم أمس بالرغم من أن الوقت كان أواخر نيسان. بعد المطر، كانت أوراق الشجر الساقطة على الأرض ثقيلة مبتلة بالماء ولا تلاحق قدميه كما رآها أول مرة.

وهو عائد إلى البيت يمشي ناظراً إلى تلك الاوراق الساقطة، متحسّسا الأرض بعصاه، رأى هند تقف خلف باب البيت تجرف مياه الأمطار الموحلة من المرآب وتدفعها إلى الشارع، بينما يتولى أخواها التوأم دفْعَها من الشارع إلى مصارف المياه. عندما رأته توقفت عن عملها ونظرت إليه، فامتلأ قلبه بالسرور.. ابتسم لها، ولم يبد عليها أنها انتبهت إلى معرفته بوجودها؟ بل ظلت تنظر إليه وترفع صوتها في حديثها إلى التوأم، ومن الواضح أنها كانت تفعل ذلك لكي ينتبه إلى وجودها في باب البيت.

اقترب من الباب وابتسم مرة أخرى، فابتسمت له واحمرت خجلاً، ودفعت شعرها بيدها إلى خلف أذنها. لأول مرة يراها من هذا القرب الشديد، فيعرف أن بشرتها شديدة البياض وأن عينيها مائلة إلى الاخضرار. فما أجمل عينيها الشهلاوين! وما أجمل فمها الذي تبرز شفته العليا إلى أمام بسبب سن مرتفع! قال لها:

- السلام عليكم.

فقالت:

- وعليكم السلام.

وراحت تنظر إلى وجهه طويلاً، معتقدةً أنه لا يراها، فامتلأ قلبه بالغبطة، وقال لها وهو يكاد يطير:

- لم أعد أراك تقفين في باب البيت عند الصباح، متى تنتهي أيام الامتحانات اللعينة؟

قالت، وهي تعدّل ياقة قميصها الأصفر بارتباك:

- نحن في منتصفها الآن.. ولكن كيف تراني وتعرف بوجودي كلما مررت بباب بيتنا؟

قال:

- أراك بقلبي.

أخواها التوأم جرفا الماء بقوة، فتناثر رذاذه عليها وعليه، فقالت وهي تضحك ضحكة جميلة وتتقي الماء بيدها:

- حاذر الماء.

تبلل ذيل سرواله، ولم ينتبه. قالت مرة أخرى:

- حاذر.

تحرك قليلاً، ثم قال وهو لا يكف عن الاستماع:

- لو أغرقتني ماء المحيطات جميعاً، لما شعرت بها الآن.

انطلق من داخل البيت صوت يناديها، فضحكت مرة أخرى وقالت:

- هيا اذهبْ.. أمي تناديني..

قال، وكأنه لم يسمعها:

- ألا تريدين أن أكتب لك شيئاً لهذا العام؟

قالت:

- بلى أريد.. ولكن أمي لم تعد تقبل أن آتي إليك، لا أدري لماذا، فهيا اذهب.

تناهى صوت أمها من داخل البيت:

- هند.. هند.. هند.

فقالت هند وهي تتلفت:

- هيا، اذهبْ، أمي جاءت.

تجمد محمود في مكانه، ولم يجد القدرة على الحركة أو الابتعاد عن باب البيت، واندلق ماء بارد كالثلج بين كتفيه إلى ظهره وقدميه، وتوقفت عيناه عند المرأة التي مدت رأسها من باب البيت الداخلية، ثم قال وقلبه يخفق بشدة ورأسه مائل إلى الأرض كمن يدّعي السمع والإنصات:

- هل هذه أمك؟

قالت هند:

- نعم، فهيا اذهب.

نظرت أم هند إليه من بعيد، فكفت عن الصياح كمن حط على رأسه الطير، ظلت ناظرة إليه بعينيها الكبيرتين بلا خشية أن يعرف، وهو ينظر باتجاهها. إن هذه المرأة التي تنظر إليه هي نفسها المرأة التي جاءت إليه والتفّت عليه كالأفعى وأكلت من رأسه وقلبه وشفتيه ثم تركته عليلاً لا يقوى على الحركة، فكيف فاته أن يميّز صوتها الأجش عندما كانت تتلوى بين أحضانه وتلتهمه كالحريق؟ وكيف فاته أن يعرف من هذا الصوت المميز أنها هي نفسها جارته أم هند التي كان قوامها الممشوق الممتلئ هو أول جسد أنثى يبصره في اليوم الأول من أيام الخروج عن عماه عندما رأى ظهرها من بعيد وهي واقفة تنشر الملابس الملونة على الحبل في الحديقة؟ كيف فاته أن تلك المرأة، القريبة إلى هذا الحد والتي تظهر بتلك السهولة بين هذا البيت الملعون وبيته، هي ليست زوجة أبيه وإنما جارته أم هند، زوجة الرجل الفظ الذي ضحك بصوته الغليظ عندما رأى محمود يقرأ القرآن في أذن ابنه الرضيع وقال:

- العميان، ألا يعرفون شيئاً يفعلونه غير قراءة القرآن والعزف على الناي؟

أصوات أخرى كثيرة ترددت في رأسه لا يكاد يعرف من أين جاءت وتجمعت خلف قوس يتردد كالصفير.. ها هو لغزه يصل إلى نقطة أخيرة في انتهاء رهيب.. وجد تلك الخاتمة المريرة تقلب حياته رأساً على عقب، فتجعل هند تقف خلف الباب بدلاً من أن تكون أمامها.. وتقف أمها أمام الباب بدلاً من أن

تكون خلفها... وهو أيضاً أصبح واقفاً بين جدارين متوازيين يمتدان بلاانتهاء.... لا يعرف أين سيذهب ليخرج من ذلك الرأس الرخو أو كيف سيهرب من مرارة هذا المكان..

19

الحلم والحقيقة

مرت سبعة أيام على يوم الخميس الذي رأى فيه محمود الدنيا بعينين مفتوحتين لأول مرة، وفي اليوم الثامن جاءته عمته مبكرة عن عادتها، بعد أن كان المطر قد جف من الشوارع وراحت بوادر الصيف تنبئ بيوم مترب وجاف وشديد الحرارة. وعندما وجدته لا يزال راقداً في فراشه مضت إليه ووضعت طعام الغداء قرب السرير وقالت:

- جئت بالغداء، ألا زلت في السرير؟

قال دون أن يفتح عينيه:

- لا أستطيع النهوض.

وضعت يدها الحنون على جبهته وقالت:

- أنت محموم! ما بك يا ولدي.. منذ أيام وانت لست على ما يرام.

ردته تكتكات الساعة إلى يوم فات وما برح يستعيده وهو واقف بذهول بباب البيت بالقرب من هند.. لا يقوى على الحركة أو التململ من مكانه، وماء بارد كالثلج يسري بين ظهره ويديه ناظراً إلى تلك المرأة الأفعى التي مدت رأسها من باب البيت ونظرت إليه بعينين من زجاج، فعرف أنها أم هند... وجهها السافر لم يفارقه

قط منذ البارحة، والشيء الأكيد الذي أشعره بالراحة العميقة هو معرفته أن تلك المرأة لم تكن زوجة أبيه إنما زوجة رجل آخر..عدا ذلك يبقى ما جرى بينه وبينها جحيماً يعذبه ويقلق راحته..... عندما سحبت عمته ستارة النافذة لم يكن ضوء الشمس صافياً، كما رآه أول مرة في يوم ربيعي مشمس قبل سبعة أيام، بل بدا شائباً بالغبرة مائلاً للصفرة في نصفه الأعلى صافياً رائقاً في نصفه الأسفل، فقالت له عمته وهي تضحك:

- الدنيا صايرة حمرة وبيضة مثل شاي العروس.

ثم التفتت إليه ونظرت إلى وجهه ففزت وقالت:

-كأنك تنظر إلي في عينيّ، يا محمود.. فهل تراني؟

قال وتلك الخيوط الخفية تتشكل مرة أخرى أمام عينيه:

-نعم، إني أرى.

صرخت عمته عالياً وهي تضحك وتبكي، وقالت:

- لا أصدق ما تقول. كنت محموماً قبل أيام واليوم ترى.. الحمد لله رب العالمين.. اخبرني كيف حدث ذلك؟ متى حدث ذلك؟

قال محمود:

- منذ سبعة أيام فجراً وأنا أتوضأ للصلاة نظرت في المرآة فرأيت وجهي.

ظلت عمته تضحك وتبكي لعدة أيام .. وأوفت بجميع نذورها من الصيام والقيام وتوزيع الأضاحي على المحتاجين وأولمت الطعام

للناس في كل الجوامع والمزارات، أما هو فكان يتحول مع مرور الأيام الى طائر يحلق بعيدا في السماء الصافية دون أن يحيق به شعور الطائر بطلاقة من لم يتبق أمامه أو خلفه من شيء. لم يكن عاصياً ولا عاقاً وإنما ذائباً في الإيمان ناحلاً من الشوق عاشقاً للرسل والأنبياء متأسياً بسيرهم، فكيف أكل منه الذئب، والذئب لا يأكل إلا من الغنم القاصية؟.. لولا أنْ أثناه عصام عن فكرة السفر للحج لذهب إلى مكة واستلم الركن اليماني وقبّل الحجر الأسود الذي قال عنه شيخه إنه نزل من الجنة وهو أشد بياضاً من اللبن فسوّدته خطايا بني آدم.. قال له أيضاً إنه جاء في صحيح الترمذي أن مسحهُ كفارةٌ للخطايا وأن هذا الحجر سيشهد يوم القيامة على كل من استلمه بحق. فتساءل محمود كيف لا يعرف اللـه ما في قلب المؤمن من الوجد والإيمان، ليشهد له هذا الحجر؟، وكيف ستقبل حجته في يوم من الأيام إذا كان رغم ذلك الوجد لا يستطيع أن يمنع عقله الغائم من تكرار الأسئلة التي تزخ في رأسه كما المطرعن جدوى هذا الوجود ومعنى الخاتمة...

كانت عمته قد تأخرت كثيراً، فنهض إلى المطبخ ليُحضر طعام الغداء. اصطدمت يده بقدح زجاجي سقط أرضاً وتهشم إلى قطع صغيرة.. ما باله قد صار وهو بصير لا يميز الفراغات او يقيسها بشكل مضبوط، بينما كان وهو أعمى يفعل ذلك بشكل أدق؟. انحنى على الكأس ليلم حطامه، فأخذ الحطام يئز تحت قدميه. كان ملأه يوم أمس بالماء ليروي به نبتة صغيرة موضوعة بقرب النافذة..

بالأمس كان مفيداً وجميلاً واليوم هو بشع وجارح ومنثور إلى شظايا.

تجيء عمته وتصيح وهي تدخل:

- الغداء، يا محمود.

ترى أن الطعام لم يعد يعنيه كثيراً، فتقول:

- ما بالك، يا محمود؟، منذ أن أبصرتَ وأنا أراك مهموماً على الدوام، ولا تبدو سعيداً أبداً.. وأراك صامتاً أكثر من ذي قبل.

- لا شيء يا عمتي.

هي أيضاً أصبحت أكثر صمتاً، وأبوه لم يعد يتحدث إلا قليلاً.. منذ أن وجد في الحديقة قدم ساق مبتورة طارت من سيارة متفجرة وحطت على شجرة الزيتون، ولا أحد يضحك. لم تكن نظرة أبيه وهو يدفن تلك القدم تحت الشجرة تقول شيئاً سوى أنه حزين.. حاول محمود أن يقرأ الفاتحة على تلك الرجل المبتورة، ولكن أفكاره هي الأخرى تتشظى إلى أشلاء وتلتقي عند عبارة واحدة كانت تقولها عمته دائماً: أيوم عشنا متنا.

- الزواج، يا محمود، لم يبق سوى أن أزغرد وأنثر الحلوى على رأسك.

- .....

- عصرت لك برتقالاً من الحديقة.. اشربه مع الغداء.

كاد العطش يقتل إسماعيل حتى جف ريقه ولم يعد يقوَ على البكاء، فصارت أمه هاجر تجري صاعدة على الصفا، هابطةً منه إلى الوادي، ثم صاعدةً الى المروة، ثم هابطةً إلى الوادي، ثم صاعدةً إلى الصفا.. وهكذا حتى أتمّت سبعة أشواط فسمعت صوتاً من جهة وليدها، فلما التفتت ورأت النبع المبارك ذهبت تحوطه وتقول له: زم زم. هذا هو شأن النساء المؤمنات من أمثال عمته التي تجوع إذا جاع وتعطش إذا عطش، ولكن تلك اللعوب الجرادة التي أكلت رأسه ورجليه، لن ترى النبع المبارك في حياتها قط، ولن ترتد من أرضها غير الوساوس والشرور. أما هو فلم تعد حتى صلاته صحيحة أو مقبولة، فقد دب إليها الوسواس.. وصار، وهو يصلي، يفكر في كل شيء إلا الصلاة نفسها.. وكلما تعالت أصوات الأذان ونودي للصلاة، زاد هلعه وارتيابه. قرر أن يترك الزمن يتكفل به ويسد عليه الباب الموارب الذي فتحته تلك الوساوس فيداويه بالذي كان هو الداء . وتذكر صبا تلك الفتاة التي تلفتت تنظر إليه عندما كان في الحافلة، فجاءته فكرة أنْ يتصل بعصام ليسأله عن رقمها، وكان ذلك بعد أن مضى عام كامل على سفر عصام انفتح فيه محمود على أسرار الحروف، وأصبح قادراً على أن يقرأ ويكتب. عجباً كيف كانت أول جملة يقرأها بحروف كبيرة خارج البيت هي "انتبه أمامك خطر الموت" مكتوبة على مؤخرة همفي أمريكية.. كان الموت موجوداً أمامه فيما مضى يفكر فيه ليل نهار، ولكن ليس بهذه الصورة التي يراها الآن.. للتو يدري به.. بهذا الموت المختلف الذي

لا يخيفه بل يتحداه ويستدرجه.. إنه موت الرجال الذين يفر منهم الموت لشدة ما يركضون خلفه، وليس موت الخائفين من أمثاله .. اكتشف أنه منذ ذلك اليوم الذي شاهد فيه فادي مقطعاً قرب الدير ثم عثر أبوه على القدم المبتورة في الحديقة، لم يعد الموت يشغل باله على الإطلاق.. لا يستطيع تحديد اللحظة التي حدث فيها ذلك، ولكن الموت لم يعد عاتياً يعنيه أو يرهبه أو ينغص عليه حياته، وها هو يعاود التفكير بفتاة جميلة بينما الفنان البصري المعروف بين الناس، يظهر على شاشة التلفزيون ويقول مختنقا بالعبرة إنه أيامَ منع التجوال قد حفظ ابنه الميت في الثلاجة طيلة الليل، وعندما أشرق الصباح أخذه للمقبرة ليدفنه هناك.. هذا كان كلامه عن تلك الأيام المخيفة التي خفّت شراستها وجنحت الآن إلى الهدوء، بينما الشريط الإخباري العابر للشاشة لم يخلُ من أخبار القتل والخطف والانفجارات، وفي خاتمتها يقول ان بلدية كارولاينا الشمالية قد أهدت نموراً حديثة الولادة لحدائق حيوان الزوراء في بغداد. أين كان تلك الأيام؟ لماذا لم يكن يعلم بتفاصيل ما يجري حوله؟ وماذا كان يفعل في عماه غير الأكل والنوم والعزف على العود؟..كان إذا ماهبط الظلام وانقطعت الكهرباء يطلبون منه القيام لجلب الفانوس أو عود الكبريت لأنه يستدل عليها في الظلام بأسرع مما يفعلون.. فقد حرم عليه شيخه، الذي حث الناس على إعادة المسروقات إلى الدولة بعد انتهاء الحرب، الاشتراك في مولدة مسروقة من أجل الحصول على الكهرباء..... ولكن الصيف الجهنمي عندما جاء جعل الحرام حلالاً له ولجميع الناس.

إنه ليتذكر أول مرة انطلقت فيها صفارة الإنذار وأول مرة أغارت فيها الطائرات في السماء وأول مرة سمع فيها سقوط الصواريخ وأول مرة تكسر فيها زجاج البيت، ولكنه لا يتذكر متى خرج من البيت أول مرة بعد ذلك؟ ولا يعرف إنْ كانت الرصاصات تمر بقربه وهو لا يعلم.. كان يسمعها تلعلع في الشوارع أو يصحو في فراشه على صوت صفارة الإنذار فيشعر بالإثارة أكثر من الهلع .. انتشى بأهوال الحرب وغمرته أصواتها بالمتعة الخفية أكثر من الخوف، وهذا هو ما كان يبدو لأبيه الذي كان يصعد إلى السطح بين غارة وأخرى متلمساً طريقه على السلم في الظلام ليشهد ما لا يمكن أن يراه حتى في الأفلام.

البدلة العسكرية التي عثر عليها الأب في الحديقة بعد أيام من الحرب كانت لضابط برتبة عالية، وعندما وجد الجيران بدلة أخرى برتبة مشابهة، رجح أبوه أنهما لاثنين من قادة الجيش الذين تخلوا عن المعركة، فقاما، بعد أن هربا من القتال، بالتخلص من البدلتين ورمياها في حديقتي البيتين. أصبحت الحديقة مقبرة لأشياء عديدة حاول محمود أن يستجمعها في باله تلك اللحظة فوجدها حلقة متصلة من الذكريات المطمورة بين أقواس الصفير كارتطام رأسه بشجرة الزيتون، وعناق أبيه لزليخة تحت شجرة الزيتون، ودفْنِ الساق المبتورة في المكان نفسه.. أضاف اليها الشرف العسكري لهذين الضابطين الهاربين من الموت.

كان الجو بارداً، فأشعل المدفأة ومد يده فوقها لكي يتدفأ... لم تعد النار بريئة بدفئها كما أول مرة، ولكنها تنذر بالخطر حتى وهي سادرة في سحرها. إن مذياع عمته يقول إن أطراف العراقيين المقطوعة كانت تُرمى إلى محرقة في معسكر أمريكي ببلد، فيشكو الجنود الأمريكيون من الدخان الذي يحمل رائحة اللحم البشري. لم يكن يعلم عن ذلك الكثير وهو أعمى فكان يسمع من غيره أكثر مما يسمع بنفسه ولايعرف من النار غير رائحة الإشتعال الطيبة..... يقترب منها على حذر ملتمساً الدفء أو رائحة الشواء او الأمان في حضرة أبيه دون أن يعلم أن شررها ينطلق كالقصر من أتون آخر متجهاً إلى الأرجل والأيادي المقطوعة... إن ذلك كله يترك أثراً في نفسه كالدخان الذي كان يتصاعد من إناء النار دون أن يعلم أنه هو الذي يترك أثراً في أصابعه إذا ما مر عليها وليس بخار الشاي . كان يتشمم بانتعاش رائحة التراب المحفور في الحديقة عندما يأتي البستاني ويقلّب تربتها، والآن يراه كيف يقلع النبتة من الأرض بقوة فيشعر بألم في فمه يشبه ألم انخلاع الضرس من اللثة.. كان يأكل أحياناً بعض السمك المشوي والآن يتألم حين يرى عمته كيف تشق بطن السمكة البيضاء فتبيضّ عيناه من الحزن...

منذ أن سافر عصام وهو وحيد وحزين، وكانت قد مرت عدة شهور على حادثة القدم المبتورة التي أوشك أن ينساها عندما عنّت

في باله صبا مرة أخرى، فاتصل بعصام الذي سافر من دبي إلى عمان وكان لا يزال ينتظر الهجرة هناك منذ عام:

- أين أنت، يا عصام؟

- أنا في دير غبار في عمان. واقف في طابور قرب مفوضية اللاجئين...

- نحن أيضا في دير غبار.. الدنيا متربة حمراء كأن الـلـه غاضب علينا.

- هل ذهبت إلى الحج؟

لم يخبره بأنه قد أبخس تلك الرغبة في نفسه، بل كذب عليه وقال:

- لم يظهر اسمي في القرعة، فلم أذهب.

- وهل شفيت من السقم الذي أقضّ روحك؟

- شُفيت ولم أُشف.

- كيف ذلك؟

- لقد بعث الـلـه لي الإشارة من زمان .. ليست تلك المرأة هي زوجة أبي.

- حقاً؟

- ولكنها أم هند التي أحببتها طيلة حياتي.

- تلك التي كنت مجنوناً بها؟.

- لم أعد مجنوناً بأحد.

- وكيف عرفت؟

- عرفت ذلك قبل أن أسافر معك إلى مهرجان الإنشاد في دبي.. ولكني لم أخبرك به.
- وماذا عن صبا؟ هل اتصلت بها؟
- قد أضعت رقمها فاتصلت بك لآخذه من جديد.
- تعال الى هنا . تعال وابقَ متحركاً كي يتحرك العالم معك.
- لا أستطيع.. أنا مضطرب بما فيه الكفاية.
- حان الوقت، وإن لم يكن من أجلك فمن أجلي.. كنا اثنين وسنبقى كذلك.
- عمتي وأبي أيضاً يريدان لي السفر.. يقولان إن الوضع هنا عاد ليصيرخطراً للغاية.
- وأنت ماذا تريد؟
- أنا أتزعزع.. الدنيا التي أتذكرها في طفولتي كانت جميلة جداً، وهي الآن كئيبة وخانقة.. رجل آخر هناك يشبهني تماماً في المرآة ولكنه مختلف عني.
- ليلاً عندما تكون وحيداً، ألا يعود لك الصفاء؟.
- على العكس، يا عصام.. كل الوساوس تلتهمني، وفي نهاية المطاف لا يبقى ما أتذكره سوى امراة أسمع خطواتها عند الباب. شيخي قال عليك بالصيام.. فهل أبقى صائم الدهر إذن.
- إذن لماذا لا تأتي؟
- يا عصام، لا تضع شريطك اللاصق على جداري، لأن الصبغ رديء على ما يبدو.

ضحك عصام طويلاً ثم قال:

- لاتفرط في التروي ..أمامك مشوار طويل إذا ماقررت السفر.

- ثمة شيء يجب أن أفعله قبل ذلك.

- تعال إلى هنا يا محمود، واترك ما عدا ذلك وراء ظهرك.ولاتنس تقاريرك الطبية حول إستعادة البصر... ستفيدك كثيراً في الهجرة .

- هناك شيء يجب أن أفعله أولاً.. كتاب شيخي .

على حاشية المدينة تولد الأجساد من جديد في الأرض الجرداء جذوراً بشرية لأشجار يوكالبتوس عملاقة متناثرة هنا وهناك، تجعل محمود يسير متمهلاً بخطاه متذكراً شاعره المعري الذي يقول: خفف الوطأ ما أديم الأرض إلا من هذه الأجساد .. رب لحد صار لحداً مراراً ضاحكا من تزاحم الاضداد. بعض القبور كانت خلواً من الأسماء، ولكن تعلوها أرقام مثبتة على لوحات معدنية، خمن محمود أنها لجثث مجهولة الهوية، فمضى يقرأ عليها الفاتحة واحداً واحداً، ثم جثم عند قبر شيخه عبد الرحمن وقال له بعد قراءة الفاتحة وسورة ياسين:

يا شيخي.. أنا الآن أُجيد القراءة في كل الخطوط، وما أجمل خطك الكوفي المحتفي بالكمال. يا شيخي، سأوفي أخيراً لك العهد في نشر الكتاب وسأقرأ إعرابك لكل لفظ وكل كلمة منذ بسملة الفاتحة وحتى الجنة والناس.. سأبقى وفياً لهذا الكتاب، ولكني أريد أن أكون وفياً لعقلي أيضاً الذي قال عنه المعري: أيها الغر إن

خصصت بعقل فاتبعه فكل عقل نبي.. أنت يا شيخي الذي أمليت عليّ حب الإيمان، وعصام أملى عليّ حب الشكوك، وأستاذي ألبير أملى عليّ حب الموسيقى، وأبي أملى عليّ حب الشهوات، وعمتي أملت عليّ حب الكتب.. جعلتموني أكون كيفما تكونون فكنت كما كنتم. كانوا يسمونني هذاك الذي لا يرى وأنا الآن هذا الذي يرى، وأنا لا أريد أن أسمَّى لا بهذا ولا بذاك.. أريد ان أكون محمود وحسب. كنت سائراً وحدي لا أرى شيئاً وأنا الآن سائر بين الناس فأرى الغبار في كل مكان.. الغبار يا شيخي في كل مكان ...

نهض إلى مرمرة القبر وغسلها من التراب المتراكم عليها وقال وهو يبكي:

- سامحني، يا شيخي، وأرضَ عني، لم يكن لي درب وأنا أعمى والآن أريد أن يكون.

20

الليل والنهار

"أين أنا؟

"أين أنا؟

"أين انا؟

"ذلك هو أول ما خطر ببالي وأنا أبدأ صباحاً جديداً في الساعة الثالثة من منتصف الليل وأتحايل على هذا الاستيقاظ المبكر بالبقاء في الفراش أطول ما يمكن من الوقت قبل بزوغ الشمس. الليل في الخارج مضاء بأنوار صفراء كاشفة تبدد عتمة الحديقة الواسعة، وثمة أراجيح محاطة بسور الحديقة الخشبي الذي أكلته الرطوبة، يتوسطها مزلقان للأطفال تغطيه أوراق الخريف المتساقطة بشكل كثيف يوحي بأن هذا المزلقان لم يرتقِه أحد منذ وقت طويل. ولكن أية حديقة هذه؟.. وأين هي ورودها؟.. وما هذه الأشجار العملاقة التي حوّلها الشتاء إلى هياكل عارية وجافة كثيرة الشبه بعناقيد عنب عملاقة تساقطت عنها حبات العنب؟. يبدو المكان بغرابته كما لو أنه موجود في فيلم أجنبي من تلك الأفلام التي أشاهدها قبل النوم.. فيه مدينة تجاور الأطلسي من الغرب وحدائق تكثر فيها أشجار االقيقب وسناجب مشغولة بجمع قوتها من الأرض، ومصاطب تملؤها الأوراق الصفراء أو الحمراء المائلة إلى الاصفرار.

الآن، ومن نافذة مفتوحة في مكان ما من البيت، ينساب الهواء بارداً، بل أبرد مما ينبغي بالنسبة لمنتصف شهر تشرين الأول، كما أنه لا يحمل ضجيج سيارات أو رائحة ورد.. وهذه الحديقة الأوروبية التي لا أزال أنظر إليها منذ أن استيقظت في الثالثة صباحاً ولحد الآن، هي ليست حديقتي بكل تأكيد. لا بد أني عدت إلى النوم بعد استيقاظي المبكر ذاك واستغرقت في حلم من أحلام الفجر، التي دائما ما نتذكرها بوضوح شديد، لأنها تكون آخر ما رأيناه قبل الاستيقاظ من المنام. كان حلماً بالتأكيد.. فها هو الظلام يعم الغرفة من جديد بسبب انقطاع الكهرباء، فلا أرى شيئاً داخل الغرفة أو خارجها، بل فقط أسمع أصوات أهل البيت، وهم يستيقظون من النوم بسبب الحر الشديد ويهيمون في الظلام طلباً للماء وللهواء. وعندما تعجز أرواحهم عن تحمل هذا الجو الخانق، يخرجون إلى الحديقة من أجل أن يشموا هواء الـلـه. أناديهم فيرفضون البقاء داخل البيت ويقولون إنه كالحفرة مظلم وخانق ولا توجد فيه نسمة هواء واحدة، وإذا ما لبثوا فيه فسوف يختنقون. ألححت عليهم بالبقاء فقال عصام:

- سينما.

وقال أبي:

- نساء.

قالت عمتي:

- عروس.

قال ألبير:

- موسيقى.

قال شيخي:

- سماء.

ورحل شيخي هوالآخر على عجل، ثم خرج بعده آخرون تحيط بهم سوسنات الحروف يرددونها واحداً بعد الآخر، وكأن كل كلمة من تلك الكلمات هي سر من أسرار الليل التي يرتفقون بها للخروج من البيت الخانق إلى البرية.. كانوا يرددون من أولهم إلى آخرهم:

- سينما.. نساء.. عروس.. موسيقى.. سماء.

وتركوني وحدي في البيت، فاختنقت وخفت، وقد غادر آخرهم، أن أبقى وحدي في البيت.. لحقت بهم وخرجت من الباب الذي خرجوا منه، ولكني لم أصبح في الحديقة.. ولم أجد أحداً هناك.. بل أصبحت فوق عتبة البيت حيث ثمة منور ضيق وعميق يشبه بئراً للسلالم فيه نافذة تطل على خارج البيت.. ارتج عليّ في الظلام وتساءلتُ: ترى هل خرجت من الباب الخطأ وأصبحت في المكان الخطأ؟ ترى هل خرجوا من باب وخرجت أنا من باب آخر كما لو أننا أدرنا ظهورنا لبعضنا البعض فلا نستطيع بعد أبداً أن نلتقي؟. لكي أعرف ذلك، دخلت البيت مرة أخرى وعدت إلى نافذة الغرفة نفسها وفتحتها بحذر لكي أنظر من هناك إلى الحديقة الساكنة، فرأيتها كما أول مرة: أشجار عارية من أوراقها يحيط بها سور خشبي قديم، وتتناثر بينها ثلاث أرجوحات ومزلقان تلهو عليه

بعض السناجب بينما نور الصباح، الذي كان متواريا قبل قليل، كشف الآن عن طريق إلى وجوه بعض الرجال المسرعين والملتحفين بمعاطف غامقة اللون أو المهرولين بملابس الرياضة وهم يضعون السماعات في آذانهم بلا اكتراث لرذاذ المطر.. ومن وقت لآخر تمر عربات الأطفال تدفعها نسوة طويلات القامة وشهباوات وذقونهن البيضاء الصغيرة منسحبة إلى الخلف.

إذن هذا هو المكان الذي أنا فيه لأول مرة.. وهذا الصباح يشرق على حديقة أراها لأول مرة.. ويكشف عن ممرات تدب عليها أقدام رجال ونسوة يسيرون بثبات إلى أمام ويجعلون رؤوسهم مرفوعة إلى أعلى وهم يمشون. إنهم، على الأغلب، أمريكيون منحدرون من سلالات البريطانيين الأوائل الذين جاؤوا من السواحل الغربية للجزر البريطانية واستقروا على الساحل الشرقي للمحيط الأطلسي، فاستعمروه وأطلقوا على أراضيه الشاسعة أسماء مدنهم الأصلية، مثل بلايموث وبورتسموث وأكستر ومانشستر وبرستول وريدنغ وكامبردج، وهم الآن فخورون بأن فعلوا ما في وسعهم من الوفاء المميت لجعل الأراضي الممتدة على طول الساحل الشمالي الشرقي للقارة الامريكية تُسمّى، بعدهم، تيمّناً بنيو إنكلاند.

لكن الذين أحبهم ويحبونني ليسوا هناك.. ويكون من الأفضل أن أناديهم بقوة قبل الزوال.. فكيف أناديهم وأنا لا أراهم؟ وأين هم الآن؟ لا أستطيع أن أرى أحداً منهم في ضباب الحديقة، وأنا نائم على حافة السرير المحاذي للنافذة.. ويدي تلامس وسادة ناعمة

محشوة بالريش ولكنها متسخة ورطبة وذات رائحة غريبة. تواً أدركت أنها ليست وسادتي وأن هذه الحديقة ليست حديقتي وأني أنظر إليها من نافذة غرفة جديدة في بلد غريب، وليس من نافذة البيت الذي خرج منه الجميع.. ها أنا إذن.. كنت أحلم قبل قليل بأنني موجود في بيتي وهم الذيم يهربون من ظلام البيت إلى الحديقة، وعندما استيقظت وجدت نفسي أنا الذي تركتهم وهربت من ظلام البيت إلى شقة صغيرة وبعيدة أنظر منها إلى حديقة كبيرة فيها سناجب وأراجيح ومزلقان.. إذن لم يكن ثمة خطأ ما في مكان ما.. وهذا يوم جديد هو الأول من أيام الغربة. هو الجمعة؟ أو السبت؟ أو الخميس؟ وأنا الذي تركتهم وليسوا هم من تركوني".

كان نائماً بملابس الخروج، وفي جيب قميصه توجد تلك البطاقة الصغيرة التي تتبقى في اليد قبل الصعود الأخير إلى الطائرة..كانت محطته الأخيرة هي بورتسموث، وقد صعد إلى الطائرة ليسافر إليهاً جواً من نيويورك، ولكن لسبب لم يعرفه أنزلوه من الطائرة وقرروا نقله إليها بالحافلة. أزاح البطانية ونهض من السرير جالساً على حافته.. كانت علبة العاج موضوعة على الدرج وداخلها مخطوطة (إعراب القرآن) المكتوبة بالخط الكوفي لشيخه عبد الرحمن.. فتحها ونظر إلى غلافها، فوجد أن اختلاط الرقش بالخط قد زاد من لطافة العنوان وأناقته ثم قرأ فيها أن العرب كانوا يكتبون الخط الكوفي بدون شكل أو تنقيط، مكتفين بقدرتهم على القراءة الصحيحة دون الحاجة إلى النقاط ، ثم

تغيرت الأحوال بدخول كثير من الأعاجم في الدين الإسلامي، وتفشى اللحن والتصحيف في قراءة القرآن الكريم، وبدت الحاجة ملحة لوضع ضوابط للقراءة والكتابة، فوضع "أبو الأسود الدؤلي" النقاط بلون مختلف للدلالة على الشكل. ثم جاء تلاميذ أبي الأسود ووضعوها بنفس مداد الكتابة الأصلية لأن النقط من أصل الكلمة..

لم يستطع مواصلة القراءة أكثر من ذلك لأنه كان يشعر بالضيق والاختناق إلى درجة أنْ تمنى الموت لنفسه... فتح المذياع وكانت مفارقة من مفارقات الكون الخفية أن يكون ذلك الإحساس متطابقاً مع الخبر الذي سمعه من المذياع.. يعتقد محمود أن تلك المفارقات تهبط من مكان خفي في الكون لتصل الآخرين بعضهم ببعض دون أن يشعروا، ثم تمر مرَّ السحاب فلا ينتبه إليها إلا قلة من الناس...كان مذيع البي بي سي العربي يقول إن الشرطة قد وجدت حارس فريق هانوفر الألماني لكرة القدم منتحراً على سكة القطار. إنه في الثالثة والثلاثين من عمره، ويا لها من مصادفة أن يكون عمره مقارباً لعمر محمود الذي ولد في شهر آذار من العام1977. أشفق محمود عليه وعلى شبابه، وقال لنفسه "لو لم تكن روحه في جحيم من الألم لما رمى نفسه أمام القطار حزناً على ابنته ذات العامين التي ماتت بمرض القلب"... ولم يمكنه الكف لحظة واحدة من التفكير بعذابات من ينهي حياته على مبعدة مئتي متر عن قبر طفلته... فماذا كان سيقول شيخه عن ضعف الايمان؟ كان سيقول إنه قد مات كافراً مستقره نار جهنم بينما يجده محمود أفضل حالاً

من ذلك الفنان البصري الذي وضع طفله الميت في ثلاجة البيت ثم ذهب إلى المسرح ليمثل في اليوم التالي. لا يمكن لمحمود أن يخالف ضميره عندما يتعلق الأمر بالنهايات المفجعة.
فالموت يساوي بين الجميع في فظاعته وجبروته. لقد عمل فيما مضى بكل طاقته على إهداء ختمات القرآن إلى الذين لم يختموه في حياتهم من أبيه وأمه إلى عصام وسائق التاكسي الذي قتل بسببه قرب دير الزعفرانية.. أصبح أنكه واحداً من الذين أدخلهم محمود في قائمة الذين سيدعو لهم بالرحمة في سره وجهره.. وكان بينهم أيضاً فادي وألبير وعبد النور.. شعر محمود بأن ثمة كف خفية تغطي أنفه وفمه وتجعله يشعر بالاختناق، ففرش سجادة الصلاة وراح يصلي الفجر.
الغرفة صامتة بشكل موحش، وقطة الجار الآسيوي السوداء تموء قرب الباب.. كانت قد تمسّحت بقدميه أوّلَ وصوله إلى هذه البناية يوم أمس، ولاحقته إلى داخل الشقة... عاد وقد أدرك هذه الحقيقة ، إلى باب الشقة الذي خرج منه قبل قليل فوجده مقفلاً.. استغرب ذلك وأراد فتحه بالقوة ولم يستطع، ثم اكتشف أنه يكاد يختنق ويداه تتلعثمان، وعليه أن يهدأ قليلاً قبل أن يفتحه ويخرج منه مرة أخرى إلى المنور.
في الطابق الأول وقف في نافذة المنور وراح ينظر من هناك إلى الشارع الذي كانت ممراته مغطاة بالأوراق التي تساقطت من

الأشجار، وأصبحت الآن ممزقة ومهملة على الأرض التي تدب عليها الإقدام..
صعد إلى الطابق الثاني.. يريد تبديد اختناقه بالصعود إلى مكان أعلى يرى منه أبعد من هذا المكان. فرأى من نافذة المنور سطوح القرميد الأحمر المغمورة بالغيوم والضباب الخفيف، وتحت السطوح ثمة ممرات تعج بالخارجين من البيوت إلى أعمالهم..
صعد إلى الطابق الثالث، والقطة السوداء تلاحقه، فرأى السيارات تقف في تقاطعات الطرق الرئيسة التي كانت إشاراتها لا تزال مضاءة بالأنوار، فتبدو في اشتعالها مثل ميداليات صغيرة تشاكس ضوء الشمس الذي كان شحيحاً أول ساعات الصباح..
صعد أعلى والقطة تلاحقه، فرأى البطائح الخضراء التي تبدأ حيث تنتهي حافات البيوت، وثمة درب ملتوٍ يشق المشهد الأخضر ويفضي إلى وديان بعيدة.. تقطعه سيارة وحيدة تتجه إلى قمة الدرب ثم تمضي خارج المشهد إلى واد خلف الأفق.
وصل إلى أعلى نافذة تحت أوج البناية ومنها نظر، ولم يكن ثمة خلف الدرب شيء، لا واد ولا زرع ولا شيء سوى الأفق. امتلأت نفسه بالأسى وتضاربت مشاعره وشعر بطعم مر كالعلقم تحت لسانه، ولم يجد في نفسه الصبر على عبور تلك العتبة التي قال عصام أنْ لا بد منها لدخول العالم الذي سيعيش سعيداً فيه إلى أبد الآبدين. ولكنه هدأ بعد قليل وهو يجد المنظر جميلاً إلى

درجة أنه أغمض عينيه عدة مرات لكي يفتحهما على روعته من جديد. كانت مشاعره تتدفق كالنافورة من فوهة مشاعر خفية.. مشاعر من يستنشق عطر السفر للمرة الأولى، وينتعش برذاذه للمرة الأولى ويغرق في كل قطرة من قطرات ذلك الرذاذ العذب. لم يسبق له أن رأى مدينة خارجة للتو من علبة الألوان، ولم يكن يعرف قبل ذلك أن الألوان يمكن أن تجعله يذوب ويتعذب ويتحرك بشدة إلى بر مجهول وعذب لا يدري أهو الحزن أم الفرح؟. تمسحت القطة السوداء بقدميه فارتسمت البسمة على وجهه من جديد وتبددت الوحشة التي شعر بها منذ استيقاظه.. وانشغل عن ضيقه بالنظر ملياً إلى البطائح والتلال الخضراء المغسولة بالماء، والتي تزداد دكنتها عندما تكون بعيدة جداً عنه وتصبح فاتحة الخضرة عندما يتعرى لونها تحت مصب ضوء الشمس. ولكن لمن كل هذه الخضرة اليانعة وهذه الحقول المسحورة؟.. فالكل يمشي ويعبرها منتصباً مسرعاً مثل تماثيل أنيقة ومصبوبة بشكل متقن.. منشغلاً عن ذلك السحر الرباني بالنظر إلى أمام.. لا أحد من تلك الأجساد المصبوبة يتوقف للنظر إليها أو الإحساس بجنونها، كأنهم يقطعون الحدائق مضطرين، كما يقطع هو مقبرة على عجل.. فهل اعتادوها كما يعتادون وجوههم في المرآة، فأدمنوها ثم أهملوها غافلين؟ أم أن وقت الصباح يدفعهم إلى الركض إلى أشغالهم، وليس بينهم أحد خال من المشاغل لكي يطل من أعلى النوافذ ناظراً إلى العالم كما لو كان يراها للمرة الأولى. سمعته زجاجة النافذة فتحركت لتعكس وجهه الجميل، فانتعشت نفسه قليلاً وهو ينظر في زجاجة النافذة

إلى صورة رجل ملتحٍ لا زال معجباً بالنظر إلى وجهه ولكن عينيه كانتا تنطقان بالفراغ تحت طية جفنه المتهدل قليلاً، فقال: "عليّ اليوم أن أخرج لشراء الهاتف الخلوي والاتصال بعصام لكي أراه". لا يعرف ماذا يتذكر من ملامحه؟ وكيف سيرسمها في خياله إذا ما أراد تذكّرها؟..
مع ذلك انقضى الوقت الماشي إلى أبد الآبدين، وأصبح كل يوم جديد هو أول يوم يعيشه من العمر.. يستيقظ من النوم ويفتح عينيه الجديدتين على الدنيا الجديدة فتنتشر من حوله الألوان والأكوان والأضواء منبثّةً من صندوق للعجائب كان خاتلاً في درج منزوٍ.. ولما انتبه إليه وفتحه رأى ذلك الصندوق المسحور والتقاه وقُضي الأمر.

21

الورد والبشر

أما وقد مضت عدة أشهر بعد ذلك اليوم الذي رأى فيه العالم من أوج عمارة، فقد اجتاز محمود العتبة وأصبح ألف محمود يرون الألوان في كل مكان فيثملون بنظافتها وصفائها، ثم يغرقون بسحرها وأطيافها الكثيفة.. إنه الآن يمتلك طلاقة الطير الذي لم يتبق أمامه أو خلفه شيء.. الطير الناظر من الأعالي إلى الحقول والسهوب الخضراء وهي تنسحب الى الخلف تاركة حقولاً وسهوباً أخرى. وعندما اتصلت به عمته وعرفت أنه سعيد إلى هذه الدرجة امتلأ قلبها فرحاً وكبرت راحتها وتمنت له الفرح طول عمره. قالت له إنها تتصل من الموبايل الذي تركه معها، وهي الآن تجيده وتأخذه معها إلى كل مكان، وأوصته بأن لا ينساق وراء الجمال العاري من الأوراق وبأن لا يكون كمعروف الإسكافي الذي سافر من مصر إلى بغداد لكي يكون سعيداً، فأصبح محتالاً وعاش حياة كاذبة زاعماً أنه تاجر غني من أصحاب الأموال والذخائر والمجوهرات لكي يتزوج من ابنة الملك.. وأوصته بأن يخبرها إذا ما فكر بالزواج في الوقت القريب لكي تبعث له بالعروسة من بغداد.

لم يخبرها محمود بأنه خارج البيت يسهر عند جاره ألبرت الذي دعاه الى حفلة يوم الهولووين، وهناك وجد الجميلات يتنكرن بأزياء الطواويس والوطاويط والبهلوانات والقطط والأرانب فيبدون أكثر

إغراء وإثارة. كانت جبال الطعام تتراكم في لحظات ثم تختفي بعد لحظات محترقة بالضحك والغناء ورفع الأنخاب . أما مناديل الطعام الورقية ذات الورود والفراشات الملونة فإنها تتساقط لتملأ سلال المهملات. لم ير محمود لذلك البذخ شبيهاً من قبل، ولو كانت عمته قد حصلت على واحد من تلك المناديل الورقية الملونة لما تجرأت على استعماله قط. جزم محمود بينه وبين نفسه بأنها لن تستعمله أبداً، بل ستطويه جانباً وتضعه إلى جوار صابونة ملونة جاء بها أبوه من تركيا في السبعينيات، ولم تجرأ على إخراجها من مخبئها المكين بعد ذلك.. إنها تفعل ذلك دائماً مع الكثير من الهدايا والتذكارات الجميلة.. ولو كانت هنا أيضاً لخلعت حذاءها عند عتبة الباب، كما فعل هو أول مرة، ولما تجرأت قط على المشي بغير قدميها الحافيتين فوق تلك السجادة النظيفة الدافئة.

هذا الكرنفال التنكري هو الذي يجب ان تسميه عمته شاي العروس، وليس جوها المغبر بين الأبيض والأحمر والممتد من الأرض إلى السماء ومن السماء إلى الإرض.. وأولاء هن عرائس المشمش اللواتي لم يجد الغبار طريقه إلى وجوههن قط.. إنهن يحاكين في بياضهن الناصع أول شجرة مشمش يراها بعد أن غادر عماه وقت الربيع.. كانت ترتدي حلة طفولية من الزهر الأبيض الكثيف، فتبدو مثل العروس لحظة زفافها.

إنه الآن يرى ألف شجرة مشمش وشجرة مشمش وكلها تشبه العرائس يوم الزفاف. وحتى عندما يأتي الخريف وتوشك أوراقها

على الذبول فإنها تشتعل بألوان الغسق والنار والشرار فتتلون بدرجات الأصفر والأحمر والبرتقالي قبل أن تودّع أمكنتها على الأغصان وتسقط سافلاً إلى الارض. لم يكن يعلم أن للأشجار صوراً تتراقص في الماء فتبدو وهي معكوسة على نفسها كأن الماء هو الكاميرا التي التقطت لها هذه الصور الفورية، ألوانها الدافئة تلك كانت تشعره بالرضا والسعادة. وعندما قال له عصام إن الشتاء قريب وسيختفي كل ذلك عما قريب، قرر أن يحاكي بحيرات الماء في التقاط الصور، وأن يشتري ورقاً كبيراً وعلبة ألوان مائية، إضافة لعلبة الألوان التي وضعها في اللحظة الأخيرة في حقيبته دون أن يكون عارفاً هذا السبب.. راح يرسم كل ما تقع عليه عيناه من حدائق وأراجيح وسناجب لا تكف عن الهبوط والصعود جامعةً طعامها بين أغصان القيقب والأرض.. رسم أيضا نقار الخشب الذي أيقظه ذات يوم من النوم بأصواتِ ضرْبٍ عالية على إطار النافذة، ففزع محمود وظن أن لصاً قد تسلل للغرفة أو أن جرذاً يعبث بها، ولكنه حين نهض من النوم اكتشف أن تلك الأصوات هي ضربات منقاره القوي الباحث عن قوته بين الخشب.. إنه لجوج أيضاً في بحثه عن تلك الديدان الصغيرة الخاتلة بين شقوق الخشب متوارية عن النظر. تساءل محمود عما إذا كانت الحشرات تظن أن هذه الشقوق تجعلها بمأمن من الخطر الشديد فإن ظن تلك الحشرات في محله وما عليها سوى أن تنطق لكي تخبرنا بأفكارها تلك لعلها تمتلك من الظنون ماهو أكثر جمالا وأهمية من أفكار نقار الخشب. ولكن نقار الخشب لا ينظر إليه ولا ينظر إلى

أحد.. عيناه حجريتان، والريش فوق رأسه يتصاعد مثل التاج، بينما الألوان تتدرج من الأزرق إلى الرصاصي في باقي جسمه وحتى نهاية ذيله الطويل.. فهل يتلون هذا الطير الشرير كيفما اتفق؟، أم يتماهى مع تلك الطبيعة الخلابة اللامبالية التي تمحو الشر بالجمال؟، أم أن هذا الشر موجودٌ عرضيّ، يؤدّي وظيفة ما في خدمة الخير، وهو حق علينا كباقي الحقوق، وجزء لا بد منه لقانون الحياة التي يجب أن تكون مكتملة الأجزاء؟. سمعه نقار الخشب فغادر حافة النافذة لكي يطير فارداً أطراف جناحيه المكحلتين باللون الأسود المائل الى الرماد.. وسرعان ما اختفى بين أجمة الأشجار.

يحدث أحياناً أن تخبره عمته عن الغبار، فيرسمها تقف في صحراء قاحلة، وعلى بعد بضع خطوات منها تقف شجرة الزيتون السامقة ذات الأوراق الجافة الصغيرة، ولكنه يضع الغيوم البيضاء فوقها بدلاً من لهيب الشمس وأمواج الرياح الرملية العاتية...كان يريد لها ظلاً من الفرح بعد أن أخبره أبوه بأنها ما عادت فرحة بالحياة كما كانت حين كان موجوداً.

عندما اتصل به عصام وأخبره محمود بما يرسمه من لوحات قال له: "يبدو أنك محظوظ ، لأن المهاجرين يقضون سنتهم الأولى في اكتئاب شديد. أما أنت فطرت على سرير علاء الدين إلى بلاد الروم ونظرت إلى الأرض عن بعد وكأنك لا زلت في أعالي السماء".. أخبره أيضاً أنه موجود في محل للحلاقة، والانتعاش

متمكن منه بشكل لذيذ لأن بنتاً ساحرة الجمال رشيقة الخصر تداعب فروة رأسه وتشذب له خصلات شعره.. ورجاه أن يرسمه على تلك الصورة وهو ذائب منخطف وخدران الرأس. فلم يستطع محمود أن يرسم من تلك الأوصاف التي قالها عصام إلا أصابع كالعيدان تتخلل شعرات متفرقة هي أخف مما ينبغي.

كيف فاته أنْ يعرف أنّ الرسم أجمل من العزف؟، وهو بعد أن كان يغني في حب الخالق يجد الفرصة الآن لكي يرسم ما صنعت يداه... بيد أنه صاغراً يجد نفسه عاجزاً عن تصوير وجوه البشر، وغير راغب في رسم تقاسيمها إلا إذا اعترضت المشهد قسراً.. وعندما رأى عصام رأسه وقد أصبح ككومة قش لحظة ذوبانه تحت دانتيل الحمالة الأسود لمزينة الشعر، طلب منه الالتحاق بمدرسة تدرّس فناً يسمى بفن البورتريت فيصبح خبيراً في رسم أشكال الوجوه. أخبره محمود بإنه لا يريد رسم وجوه البشر، لأن ملامحهم وأعمارهم تتغير باستمرار.. وقد تنشأ في وجوههم علامات الشر الكامنة في الأفواه ولا يستطيع محوها عندئذ بأي لون من الألوان، بينما يستطيع فعل ذلك مع الطير ومع الشجر.. خلو أشكال معينة من أي تعبير لا يحدث إلا لمن لا يعلم أن ثمة أحداً يراقبه أو يتوقع منه شيئاً.. لا يطمع في شيء ولا يخشى شيئاً.

كان يتلمس الأشياء بيده عندما كان أعمى.. يتخيلها جميعاً على الدرجة نفسها من البراءة والغفلة، ولكنه عندما أبصر اكتشف أن الوجوه تحجبها التعابير مثلما السماء تحجبها الغيوم التي تحول

دون زرقتها وصفائها. أما الورود والحشائش فلا حجاب يحجبها، والضوء لا يتوقف عن كشف تلك الألوان الزاهية في كل نبتة موجودة فوق الأرض.. الطيور قرب الجداول لا تُعدّ أشكالها، وألوانها لا تحصى، والمياه الرقراقة قرب شطآنها تتدرج أمواجها من الأزرق الغامق إلى الأخضر الفاتح، وتزداد صفاءً وهي تقترب من الشاطئ، وتصبح صافية كالبلور تحت الأقدام. تعلّمَ أن يجلس في الهواء الطلق ليستمع إلى دبيب الهوام وهو يحتضن أوراقه بين يديه. وعندما يكون الهواء دافئاً تنحدر بعض الدراجات الهوائية قريباً منه، يقودها درّاجون شباب محنيو الظهور، فيقطعون عليه الصمت بأصوات خافتة.. أما إذا أشرقت الشمس على تلك الهضبة المعشوشبة، فإن العجائز الأنيقات يمررن به ويضحكن معه بشفاه رفيعة هي الوحيدة المطلية بأحمر الشفاه، وأحيانا يقلن له: "سنة جديدة سعيدة"، أو يتوقفن لينظرن إلى ما تكوّن وتلوّن على تلك الأوراق فلا يجدن طيوراً ولا فراشات إنما مربعات ومثلثات ودوائر من الألوان.. ولا شيء سوى الألوان.. الأصفر والأخضر والأزرق والأبيض والأحمر.. الأرض وما فوقها ألوان ...يجدها كل يوم في الحدائق والحقول المترامية الأطراف وفي أحواض الأكواريوم الموضوعة في مداخل العمارات وعيادات أطباء الأسنان. وعندما كان يترك الشمس ويجلس أمام تلك الاحواض لينظر إلى تلك السمكات كان يقول لنفسه: "عجباً! كيف تحول الزلال في الخلايا إلى هذه الألوان والصبغات الخلابة؟!، وكيف يمكن لهذه النجوم السرمدية أن تظهر بهذا الشكل الهيّن على هذه الحراشف والقشور

التي لا عقل لها ولا حيلة، ولا تدري أنها تحمل فوق ظهورها كل هذه المتاحف من الفن المتماسك المكتمل والمتكون دون عناءٍ أو فِرشاةٍ أو نظرة واحدة الى المرآة."

أصبح محمود يفكر بأنّ على الجدران، التي تضم لوحات الرسامين الذين وصلوا إلى درجات عالية من الشهرة، أن تنحني لهذه السمكة الجاهلة التي علمتهم لغة التجمّل وتناسق الألوان.. عليها أن ترفع أنخابها أيضاً لذلك الحصى الموجود على الشواطئ والذي يتكحل ويتخطط ويتأنق مثلما تفعل النساء.. ولكن النساء هنا لا يتجملن مثلما يتجمل الحصى والشجر والفراشات. إنهن يمضين مسرعات إلى وجهاتهن ولا يضعن الزينة على وجوههن أو الحلي فوق ملابسهن، ولكنهن عندما يتمددن عاريات على الشواطئ يشعر أن الضوء يشرق من أجسادهن الثلجية بدلاً من الشمس.واحدة منهن أرسلت له قبلة مع الريح وهي تستظل تحت شمسية بيضاء لاتخفي من جسدها العاري شيئاً سوى قدميها.

كان يرى الألوان تتدرج في حبات العنب من الأزرق الغامق إلى البنفسجي المائل للسواد، ويعجب كيف يمكن لتلك العناقيد الجميلة، التي تتدلى من قمريات بلاده، أن لا تمنع هذاك الخراب هناك؟، وكيف لا يمكن لأقراط النخيل أن لا ترفع أنظار الناس إلى أعلى بدلاً من تشتتها مذعورة إلى الزوايا والطرقات؟.كان هناك أيضاً في بلاده التين والزيتون والرمان..والمن والسلوى فكيف انقلبت الآية هناك وأصبح المكان الخرب هو الذي يتقدم الناس ويجعلهم

يتماهون معه مثلما يفعل الجراد وتفعل بعض الحرباوات الصغيرات للدفاع عن أنفسها من الأخطار.. فهل كان المكان الفاشل يمنعهم من التولّه بالجمال حتى يأذن هو بذلك؟ وهل شرطه القاسي هذا هو السبب في تردّي أذواق الناس الذين لا يرون حولهم سوى الخراب. يبدو أنهم كالفراشات.. قد حوّلوا نقطة الضعف هذه لصالحهم فأصبحوا يتماهون مع الخراب من أجل النجاة.. كأنهم يبعدون الطيور التي ترتعد حين ترى جناحي فراشة وقد ارتسمت عليها عينان كبيرتان.. غير أن ذلك التخفّي ليس هو الوحيد الذي يلعب دوراً حاسماً في البقاء والسلامة لدى الحشرات، وإنما كان للألوان أيضاً دورها المشهود في تأمين ذلك البقاء. كان يرى الطلع طائراً داخل شبكات شفافة من الهباء تنقلها الريح الساعية من ورود إلى ورود أخرى لنقل حبوب اللقاح، فتبدو تلك الشبكات وسيلة نقل هشة وغير مأمونة استبدلتها الطبيعة ببطاقات بريدية ملونة من روائع الأزهار التي كلما ازدادت تلوناً، أصبحت أكثر إغراءً لأولئك السعاة السعداء الذين يحصلون لقاء هذه الخدمة البريدية على رحيق حلو. ذلك الإغراء الذي لا يقاوم بالنسبة للنحل.. ليس حفياً عن كل مطمع أو غاية، ولكن محمود كان يقول "إنها إذا كانت تزور الجمال من أجل مصلحة فليت تلك المصلحة تدوم."

أوراق الأشجار تحفّزه ليرسم لوحات جديدة تزداد عدداً كل يوم كلما خلط الأحمر مع الأصفر ليحصل على البرتقالي، والأزرق مع

الأصفر ليحصل على الأخضر، والأزرق مع الأحمر ليحصل على البنفسجي، فكان يشعر بأن عينيه تتشبعان باللون كما تفعل الوردة عندما تستكمل مظهرها الخارجي ، وتتميز بوضوح عن سواها من النباتات المجاورة. كان محمود يتمنى مرة أخرى أن يستمع إلى أفكار الحشرات مثلما تمنى أن يستمع إلى أفكار الصيصان التي رباها وهو صغير، ليجد لماذا هي لا تحب الحمرة المشبعة الغامقة التي تبدو له سوداء أحياناً من شدة الحمرة، على العكس من فراشات النهار التي تهتم لذلك القرنفل ذي الحمرة الغامقة المائلة للسواد؟.. ذلك اللون كان علامة أخرى تقول إن للحشرات ذوقاً أيضاً.

البشر حول تلك الحقول المسحورة أيضاً لديهم أفواه تظهر علامات غريبة لا يستطيع فهمهما أحياناً، وهي تتحاشاه عندما يطلق لحيته.. وجوه هؤلاء البشر لا تُظهر العدائية والتعالي نحوه، ولكن من الواضح أنها أيضاً لا تُظهر المشاعر الحقيقية الكامنة خلف تلك الوجوه الجميلة ذات البشرة النضرة.. عيونهم أكثر إشراقاً، وأفواهُهم لا تكف عن الابتسام.. إذا تحدثوا إليه نظروا إليه في عينيه مباشرة ولا يخجلون من النظر إلى العيون.. هم وكلابهم وأطفالهم سائرون بهدوء.. ولا أحد يصرخ هناك أو يتعارك.. كأنهم يحلمون بالسعادة حتى وهم يسيرون .

شعر محمود بأنه أجزاء وشظايا من ماض ينظر إليه على أنه نفسه التي تكونت دون أن يضيف لها شيئا من عنده، فراح يقشر

نفسه من جميع الجهات ويفكك تلك الأجزاء جزءاً جزءاً، وأصبح يبحث عما يكرهه لكي يرميه جانباً وعما يحبه فيستبقيه. وجد أنه يكره ضعفه ورقّته، وهو الجزء الذي خلّفه اعتناء عمته الزائد به بسبب عماه، وأنه يكره شراهته إلى النساء، وهو الجزء الذي خلّفه أبوه، ويكره خوفه من الريح العاصفة والراعدة، وهو الجزء الذي خلفه موت أمه وهو صغير.
ولكنه لم يستطع أن يحدد موقفه مما خلفه شيخه عبد الرحمن فيه، كما لم يستطع أن يرمي جانباً أي شيء مما فككه وكرهه أو تمنى أن يرميه. طلب من أبيه المجيء لزيارته بعد أن عثر على عمل لتدريس اللغة العربية لأبناء العوائل المغتربة وأدّعى أنه أصبح متداولاً بينهم كالعملة النادرة، فقال له أبوه إنه يكره السفر بالطائرات وإنه لو كان موجوداً في بلد يمكن الوصول اليه بسيارة لجاء إليه، وقال له الأب أيضاً إنه قد زار أخيراً قبر أمه وقرأ سورة الفاتحة وسلّم عليها. عمته أيضاً لم ترض بالسفر إليه حتى عندما أخبرها أنه رأى الغيوم تمتد تحته كفراش القطن وهو يحلق في السماء، وقالت له، وهي تبكي، تعال أنت يا محمود، فقد لا أراك مرة ثانية، لأنه يصعب علي مغادرة البيت وقطع المحيط المخيف إلى بلاد غريبة. بعد البكاء ضحكت وقالت إنها عثرت أخيراً على عوض دوخي وهو يغني (دليلي احتار) محتضناً عوده، وإن الطعام يفيض عن حاجتها فتخرجه إلى الحديقة وتضعه تحت أنظار الطيور التي تهبط من سعفات النخل بالعشرات وتروح تومئ برؤوسها إلى أمام وهي تلتقط حبات الأرز وقطع الخبز إلى أن تأتي عليها جميعاً. قالت له أيضاً إنها تقضي

شيخوختها في الحديقة بسلام بين حمامات النخيل التي أصبحت تطعمها بدلاً منه، ثم تفتح لها صنبور الماء لكي ترتوي بعد الطعام. فكر محمود أن يرسم تلك الحمامات في لوحتها التي تقف فيها تحت الغمام بدلاً من الشمس، وأن يضيف قبر أمه إلى لوحة أبيه.. وعندما سألته أين يسكن؟ كذّب وقال إنه يعيش في شقة صغيرة وجميلة، ولم يقل لها إنه يكاد يجف من شدة النحافة وقلة الطعام وإنه كاد يسرق لوح نستلة ذات يوم من المتجر، لأنه لم يعد يقدر على شراء مضادات الحزن من الجوز والموز والحلوى، ولم يعد هناك من متعة لا تُكلّفه مالاً أو كلاماً سوى الرسم. أما الصوم فيما مضى فإنه يعينه على العيش مكتفياً بالخبز والشاي.

كانت الفرشاة لا تكف عن الطقطقة وهي ترتطم بجدران القدح المملوء بالماء، والصفاء يعود إليه، فيركز في عمله ويجّد في حياته ويعثر فعلاً على وظيفة مدرس للغة العربية لأولاد المغتربين العرب.. الآن يكتشف أنه لم يحلم بتلك القدم المبتورة منذ عدة شهور.. وكان كلما دخل عصام عليه يرى أمامه لوحة جديدة ليس فيها سوى الألوان.. ولكن عصام يجد الأرض مرتفعة ومخيفة جداً تحت شجرة الزيتون في اللوحة التي يقف فيها أبوه. فيقول له:

- ماهذا الارتفاع، يا محمود؟

يصمت محمود وينظر إلى ذلك الارتفاع نظرة غريبة لا يدري ماذا يقول عن تلك الأيام التي مرت من تحت تلك الشجرة المباركة؟.

يُخرج عصام من حقيبته الجلدية الصغيرة أكياس المكسرات ويقول ضاجاً بين محتوياتها:

- لقد أرسلت لك الشرائط التي طلبتها من فرجينيا.. ألم تصل؟

- كلا لم تصل.. هل بها أشياء مخلة بالآداب؟

يضحك عصام عالياً ويقول:

- لا ليس فيها أشياء مخلة بالآداب.. هل تظننا في بلد عربي، لكي لا تصل مثل هذه الأشياء بالبريد؟

- على رسلك.. كنت أمزح حسب.

- فهل عنوانك صحيح يامحمود؟

- أعتقد أنه كذلك.

- إذن لماذا لم تصل؟ يجب أن تتأكد.

- ولكن ماذا عن ألحانك، يا عصام؟.. هل تبخرت؟

- أنت أيضاً لم تعد تكتب الشعر.. إننا نمرق من عنق الزجاجة.

- لا أرى غير جدار زجاجي عريض نطل منه على ما نريد وما لا نريد..

- لا تتفلسف يا محمود ودع مالا تريد إلى ما تريد.

قال له عصام أيضاً إن شعره ولحيته قد طالا كثيراً فأصبح شبيهاً بروبنسون كروزو.. ونصحه بالذهاب إلى الحلاق لكي يجلس على الكرسي الملعون ويشعر بالانتعاش التام، وبالبنات وهن يداعبن شعره ويشذبن خصلاته بأصابعهن التي تمر على الجذور.. فيكاد

يعض أصابعهن التي تشبه أعواد الحلوى من سكرة الخدر الممتد من الرأس إلى نهايات الجذور.

ضحك محمود وقال:

- تقصد خلف الجذور التربيعية. انظر إلى نفسك.. تكاد تكون بلا شعر.

أخرج عصام علبة سكائر مالبورو من جيبه، ووضع صحناً من الجوز واللوز والفستق على المنضدة، ونقل عدة علب بيرة من حقيبته وتركها فوق تلة ثلج خارج النافذة لكي تبرد هناك في الصقيع، ثم راح يروي له حكايات الطريق التي يصادفها كل يوم وهو يقود اللوري بين مدينة وأخرى.

كان عصام، وهو يدخن، يتصاعد مع دخانه إلى أعلى ويصبح من المتبخرين.. ملابسه جميلة.. عيناه هباء منثور.. وفمه أصبح يمتاز بالخفة، فيقول له محمود:

- أصبحتَ ثلاثة في واحد، يا عصام.

فيقهقه عصام عالياً ويقول:

- فإذا شربت علبة أخرى كم واحداً سأصبح؟

22

الجنة والنار

لأول مرة يكتشف أن الشبه بينه وبين أبيه كبير وقد يصل إلى درجة التطابق، ولكن تعابير وجهه ، وليس ملامحه ،هي التي تنطق بالاختلاف بعد أن جعلها العمى خاليةً من المعاني التي تستتب في الوجوه كالعلامات الفارقة. كان أبوه مسؤولاً طوال عمره عن تلك المعاني دون أن يدري. أما هو فقد أنقذه العمى من تلك العلامات.. من التجهم أو التعالي.. من التبرم أو التصاغر.. من التلوّن أو التوثب. رغباته القليلة أيضاً أنقذت تعابيره من الترقب والطمع وانتشلته من غور الرغبات السحيق. ولكنه أيضاً إذ يرى وجهه خلواً من تلك العلامات يجده فارغاً وبريئاً لا يتوقع أي شيء. أما عيناه العسليتان المتبقيتان خلف جفنيه المتهدلين قليلاً، فلا يوجد فيهما تعبير محدد، بل إنه ليعتقد أحياناً أنهما تنطقان بالبلاهة.

كان يقلّب في الصور عندما رن جرس الباب أكثر من مرة.. سمعه وضاق بذلك الصوت المزعج الذي ذكّره برنين جرس الباب أول وصوله قبل عدة شهور عندما جاء صاحب البيت الآسيوي ليبحث عن قطته السوداء. استغرب محمود ذلك القرع المتواصل يوم سبت، وأستبعد أن يكون عصام هو الطارق لأنه عادة ما يتصل به ويعلمه بموعد زيارته قبل أن يقصده في طريق طويل.. ثم أن الوقت ليل واليوم سبت فمن يكون هذا الطارق القادم وقت الغسق؟.. قال:

- من؟

فأجابه الطارق بصوت واثق يبدو كصوت مذيع:

- بوليس.. افتح الباب.

تحرك قلبه عالياً ثم تصاعد ينبض في صدغيه، وهو يرى الشرطي الأسود ينظر إلى السماء بعيون خابطة البياض... أصبح بينه وبين الباب.. كلمات قليلة قالها تاهت في الفراغ إلى أن أخرج الرجل ورقة مكتوب عليها اسم محمود وعنوانه. بدا الأمر من الطريقة التي حدّثه بها الشرطي غير مثير للقلق. ولكن هناك في مركز البوليس أخرجوا له ظرفاً أبيض اللون وسألوه إن كان يعرف من أرسل تلك الرسالة، فقال إنه هو الذي أرسل تلك الرسالة لنفسه. قالوا له عبر المترجم:

- هل هذا خطك؟

- كلا.. إنه خط صاحب البيت، وهو الذي كتب عنواني واسمي.

فقالوا له:

- لماذا أرسلت لنفسك رسالة ؟

غمغم بكلمات متعثرة:

- كنت أريد التأكد من العنوان.

- لماذا تريد التأكد من العنوان؟

- أردت الـتأكد من أني موجود في العنوان الصحيح، لأن صديقي أرسل لي طرداً من فرجينيا ولم يصل.

- يوجد في الرسالة منديل ورقي مشبوه أزرق اللون.

أزرق أم وردي؟ وشعر بالأرض تنشق تحت قدميه.. قال:

- إنه منديل أخذته من بيت جاري في عيد الهولوين.. لم أجد غيره في جيبي عندما كنت في مكتب البريد لإرسال الرسالة.

نظر له الشرطي الآخر نظرة محايدة وفم ملتوٍ وقال:

- أحلنا المنديل الورقي إلى المختبر الجنائي ولا زلنا ننتظر النتيجة .

- .....

- ولكن هناك في بيتك.. حقيبة سوداء مشبوهة وجدنا من الأفضل فحصها هي الأخرى.هل هي حقيبتك؟

- نعم.

بعد يومين استدعوه مرة أخرى وجعلوه يتذكر نفسه من لحظة خروجه من المطار وحتى لحظة وصوله إلى البيت في بورتسموث.. قالوا له إن المنديل عاد من المختبر الجنائي، ولا شيء فيه يدعو للقلق وكذلك الحقيبة. ولكن ما دعاهم للقلق أن هذه المنديل أعاد إلى الملف حادثة صراخه بطريقة هستيرية داخل الحافلة، بالإضافة الى أن اسمه يتشابه مع اسم عربي آخر موجود في قائمة الأشخاص المختارين التابعة لدائرة أمن المواصلات الأمريكية وهذا كان سبب إنزاله من الطائرة. قال لهم إن الآلاف في أمة الإسلام يحملون اسم محمود أحمد محمود.. فصرحوا له بأنهم يقصدون

الاسم الرباعي لعربي آخر اتضح أنه ليس عازباً أو عازفاً أو نباتياً مثلك وأن قضية الصراخ هي كل ما تبقى. عاد طعم العلقم يجري تحت لسانه وراح يتذكر فرجته على الطريق من نافذة الحافلة. كان الأفق يتشكل عبر انطباق السماء على الأرض بدون سديم الغبار، ولكن عبر تدرّج ألوان الغيوم من الرمادي الغامق إلى الفاتح ثم الأفتح لوناً.. وثمة طبقة ناصعة البياض تشتعل كالنيون المتوهج تفصل بين الغيوم والتلال الخضراء التي كانت تبدو من بعيد كأرض السواد... ماسحات المطر لم تكف عن الحركة إلى الجانبين، ورذاذ الماء كان يتطاير خلف عجلات السيارات المارة بهم، وظهر البنت الجالسة أمامه مكشوف كالزبدة رغم أن الوقت شتاء. كان ظلام الصباح الباكر قد انقشع عن خراف ناصعة البياض ترعى في تلك الحقول الخضراء ونباتات تتسلق جذوع الاشجار العملاقة العارية من الأوراق، ونوارس كبيرة الحجم تطير منخفضة على الأرض غير هيابة من بعض المهرولين الذين كانوا يقطعون البلدات التي يمرون بها. مروا بسواقٍ وبحيرات ورأى أوزات تطفو عليها خلف أسيجة الحقول الخشبية التي كانت تفصل تلك الأراضي الخضراء عن الطريق العام. بدت أعمدة الكهرباء العملاقة هي النشاز الوحيد الذي يخدش صفاء تلك اللوحة المكتملة، إلا أنها لم تعدم وجود بعض العصافير على أسلاكها العالية. عندما توقفت الحافلة قرب محطة الوقود لتبديل السائق هبط بعض الركاب من الحافلة لتدخين السكائر، وكانت بينهم تلك المرأة ذات الظهر الزبدي سرعان ما انضمت اليها فتاة أخرى تكشف عن صدرها الأبيض

كشرحة الجبن الطرية.. ومن حاصل جمع الاثنين تمطى محمود وتمطق وشعر بالانتعاش، ثم تساءل هل يعرف الموت طريقه إلى هنا؟ فعاد الضيق ليحاصره فجأة في تلك اللحظة الجميلة التي تمنى السائق فيها رحلة سعيدة للجميع قبل أن ينزل أنيقاً نظيفاً كممثل سينمائي...تحركت الحافلة الدافئة من جديد، والسيارات تمر قربها كقطع كبيرة من الحلوى، ومصابيح أضويتها مفتوحة بسبب الضباب، وعجلات الشاحنات المسرعة ترش الطريق بين الحين والآخر بطشار من الماء المرذوذ.. تلال.. سيارات.. رجل يهرول.. سيارة إسعاف متوقفة.. ثم نام محمود قليلاً وحلم بتلك الإسعاف التي رآها قبل قليل تنقل فادي حيّاً إلى قسم الطوارئ في المستشفى. لم يكن فادي قد تحول إلى أشلاء بعد، ولكن الممرّضَيْن اللذين كانا يجلسان قربه فرحا برؤيته، وقالا له: أهذا أنت؟ ثم قال أحدهما للآخر: "يجب أن نذبحه.. أن نقطّع حبله الشوكي فيرتاح من هذا الألم. ثم تغير المشهد فأصبح محمود ممدداً بدلاً من فادي، والممرضان أحدهما يضع حزاماً ناسفاً حول بطنه والآخر يكمم فمه وأنفه بيد ضخمة تعيقه عن استنشاق الهواء. ارتج عليه وشعر بالاختناق الشديد وهو لا يعرف إن كان في السيارة أم لا يزال في الطائرة؟ ولكنهم أيقظوه من النوم وقالوا له إنك قد صرخت في الحافلة الـلـه أكبر وأنزلوه منها وهم ينظرون إليه كمخلوق فضائي قادم من كوكب آخر.. فجأة أصبح هو ولحيته مثار حوار وهمهمات وظلوا ينظرون إليه وكأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون إلى أن بادر السائق بالإعتذار واستئناف الرحلة من جديد... كان

صراخه مجرد صراخ في حلم.. كابوس ليس إلا راوده من هول الفظاعات التي رآها في اليقظة، فلماذا يحيطونه بنظرات الارتياب تلك وينزلوه من الطائرة ثم من الحافلة ثم يرسلون في طلبه مرة أخرى ويعيدون ذلك الشريط المؤلم أمام عينيه؟.. تكاثف الضباب في الخارج بينما الحافلة تزداد سخونة ودفئاً.. ثم استيقظ وانتبه إلى ستائر الحافلة الزرقاء وأضويتها الزرقاء، ولكنه لم ينتبه قط إلى وجود تلك الكاميرا التي كانت تصوره كما تصور بقية الركاب طوال الوقت في الطريق من المطار إلى البيت.

علاقة الآسر بالمأسور ليست علاقة جميلة على أية حال.. مهما بالغ الأول في إظهار التسامح والطيبة سيزداد الثاني انكساراً.. هكذا يراهم يظهرون في شاشات التلفزيون في أفلام الحروب، فيبادر المنتصرون إلى مصافحة المهزومين فيزداد الأسير ذُلاً والآسر بشاعةً. كانت ربيكا تجلس أمامه وساقاها مكشوفتان إلى منتصف الفخذين تلصفان بياضاً تحت تنورة سوداء قصيرة زادت بياضها إشراقا وجعلت إنطباق الرجلين فوق بعضهما يبدوان كوسادتين متقابلتين لثمرة مشمش. قالت له عبر المترجم:

- رسوماتك جميلة، يا محمود.

- شكراً.

- تستعمل اللون الأصفر كثيراً.

- نعم.. ولكن لماذا أنا هنا في عيادة نفسية؟

- لا تقلق.. كل شئ على ما يرام.. أردنا فقط التأكد من أن كل شيء على ما يرام فيما يتعلق بصحتك النفسية.

- أنا لست مجنوناً؟

- العيادة النفسية يراجعها نصف الشعب الأمريكي، فهل هذا يعني أنهم مجانين؟

- لماذا يراجعونها إذن؟

- إنهم يحتاجون الفضفضة إلينا عن أسرارهم أو التحدث عن أشياء تثقل كاهلهم ويخجلون من قولها إلى أحد..

- ولماذا أنا هنا؟

- عندما تحقق البوليس من الحقيبة السوداء ورسالة المنديل الورقي ووجدهما لا يبعثان على القلق، وجد في الوقت نفسه الكثير من الأشياء تبعث على القلق، كصراخك في الحافلة.. كهذه الأشلاء البشرية تحت شجرة الزيتون في اللوحة..

- هذه ألوان وأشياء وليست أشلاء.

- هذا فم فاقع الحمرة.. هنا كف مصبوغة الأظافر.. هنا ساق مبتورة.

- أحلام.. مجرد أفكار رسام مبتدئ.

- لا توجد أفكار بدون رؤيا؟

وجد محمود نفسه، وهو يحاول تبرير ذلك للطبيبة النفسية، في موضع الأسير المنكسر الذي يعامله آسره بلطف فيزيده هذا اللطف شراسة وكراهية. أما أقراص السعادة في يده فكانت تذكره بقصة عمته عن القاضي الفقير الذي ذهب من بغداد إلى مصر، وضحكت

له الدنيا هناك في تلك الديار البعيدة حتى جئ له بصوان من السمك المشوي أكله فغص بعظامه، فرثى نفسه وقال قبل أن يموت: أيوم عشنا متنا؟

كان ينظر إلى وجهها الستيني الحازم، فيجده صافياً كالقشطة وجميلاً رغم كبر السن. لو كان عصام هنا لهبط عليها كالمظلي، ولف شباكه العنكبوتية حولها وافترسها بلقمة واحدة.. إنه صياد ماهر للنساء لايختلس النظر إلى وسائدهن البضة..إنما يحلق كالفراشة حول أضوائهن ثم ينقض كالعنكبوت على أجسادهن ولا ينفر من فريسة لونها أبيض أبداً حتى وإن امتلأت بالخطوط والتجاعيد.. غريباً بالمكان واللغة آثر الصمت على الكلام، فعادت تقول له:

- فماذا رأيت؟

- رأيت قتلى وجرحى كالحصيد.. هم أنفسهم الذين ترينهم على الشاشة.

- انا آسفة حول ذلك.. أرجوك اقبل اعتذاري .

وجد من الجميل أن تعتذر له ربيكا كما أعتذر له السائق، ولكنها وهي تفعل ذلك تحولت في تلك اللحظة من طبيبة نفسية إلى نجمة سينما ترتدي ساعة بيضاء غالية الثمن وتحمل قنينة مياه معدنية ، ثم بعد ذلك تذهب إلى موقع التصوير لتبحث عن قطتها في فيتنام.. وجدها رغم لطافتها كاذبة، ولكنه كان أسيراً عندها ففضل الصمت على الكلام.

- أنا فعلا آسفة حول ذلك.. بلادي تفعل أشياء رهيبة.. أنا أعلم ذلك.
لم يشأ أن يريحها بالكلام، وظل صامتاً إلى أن قالت:
- ماذا تعمل؟.. أرى أنك كنت تدرّس اللغة العربية لأبناء المغتربين..
هي تعرف كل شيء عنه، فلماذا تسأله؟.. كان ذله يزداد لحظةً بعد أخرى، ووجد وظيفتها للاستماع إلى نصف الشعب الأمريكي مختلفة عما تفعله معه الآن.. إنها تريد رميه إلى بئرها الخلفي فيتكوم فوق جثث كثيرة مرمية هناك.. هي تعامله كطفل مخطئ بشكل خفي، وبدل أن تعاقبه فوراً فإنها تنزل عقابها بتلك الأسئلة الفائضة عن حاجته وحاجة كبريائه.. وجدها ستظل تبتسم له لحين تسحقه سحقاً بكل تلك الابتسامات، والإحساس الهادئ بالكمال ورفعة النفس، ولكنها كانت أيضاً أنظف منه وأكثر أناقة، وغرفتها مرتبة بشكل مزعج، فكان ذلك يزيده انكساراً ومهانةً. رغم برودة الجو في الخارج كانت ترتدي قميصاً بنصف ردن، لأن الغرفة كانت دافئة كيوم من أيام نيسان في بغداد.. سجادتها أيضاً كانت نظيفة جداً ومليئة بالورود والفراشات المسحوقة تحت حذاء المترجم العملاق.
- ها؟ كنت تدرّس اللغة العربية، إذن؟.. هذا مثير للاهتمام.
كان المترجم ينتظر رده، بينما محمود يفكر بأنها تكذب، وأن اللغة العربية بالنسبة لتنورتها الستينية القصيرة ليس مثيرة للاهتمام بل

للسخرية، وربما هو نفسه سيصبح موضوعاً للتندر عندما تجتمع مع صديقها في السرير الدافئ ليلاً، فتقول له ما يقوله جاره إلبرت ضاحكاً عندما يسكر.. بلودي فورنرز.. بلودي فورنرز.. ثم يؤشر على أسفل بطنه لتوضيح كلامه ويقول:

- إذا كنت مفلساً، فلماذا لا تبيع حيامنك إلى العقيمين فيزداد نسل البلودي فورنرز.

هذا النوع من التجارب وجده أغرب مما فعله المهاتما غاندي الذي كان يحتفظ بسائله المنوي، معتبراً أنه مصدر طاقة روحانية، بينما محمود لم يكن يفعل هذا ولا ذاك إنما يهدر ذلك السائل مع ماء الحمام كل يوم.. وذلك لغز آخر من ألغاز الحزن الأبدي بعد المتعة العظيمة ولايدري إن كان يسعى كالحية ليدمر سعادة الآمنين أيضاً كجاره إلبرت ...ذلك الطيب اللعين الذي وجد حقيبته السوداء مرمية في برميل النفايات تحت البيت فأرعبه بضربة جرس متاخرة سائلاً أياه ،وهو بين الصحو والسكر، إن كانت تلك الحقيبة له :

- نعم ولاأريدها.

- أرمها بعيداً إذن فقد يراها أحد غيري ويبلغ عنها الشرطة.

كان ألبرت مهتماً به مثل ربيكا اللطيفة وذات الرائحة الطيبة.. التي لا يعرف صدقها من كذبها وهذه الابتسامة الطبية مزروعة في فمها دائماً؟.. تبدو ابتسامتها المهنية بامتياز قد استطاعت في تلك اللحظة استخراج منديل صغير من طفولته البعيدة كان موجوداً في

شعر مريم، وكان دائماً يكاد يسقط على صدرها. استطاعت أيضاً أن تجعل عينيه ترسمان نساء حمام عاريات على هواء الغرفة، ودودةَ قزٍّ خضراء طرية ملتفة على غصن رمان يابس... عيناها زرقاوان كالخرز ولا يعرف لحد الآن، وهي تنظر الى عينيه مباشرة كما يفعل الجميع، هل الضوء القادم من النافذة هو الذي يمتزج مع نظرات العيون فيمنحها هذا التعبير الجميل، أم أن الجمال موجود خلف عينيها، وما على الضوء سوى إخراجه من الروح؟.

- ها؟

- نعم كنت أفعل ذلك.

- وقبل ذلك؟

- كنت منشداً دينياً؟

- إذن تفهم في الموسيقى؟

- نعم

- هذا مثير للاهتمام.

- .....

- كيف كانت علاقتك بأبويك؟

- أمي ماتت وأنا صغير.

- أبوك؟

- لا يزال حياً لحد الآن.

- هل كان صارماً؟

- .....

- إذن هو الذي رباك؟

- بل عمتي..

- هل لا زالت على قيد الحياة؟

- نعم.

- وأين هي؟

- .....

شعر بأنه لا يستطيع النظر إلى عينيها مباشرة ولا يريد الاستمرار أكثر من ذلك.. لماذا يتحدث عن عمته وأمه وأبيه وباقي سلالته أمام تلك المرأة الغريبة؟.. لماذا يجب أن يفعل ذلك؟ ولماذا يجد نفسه فجأة وبقدرة عجيبة يتعرى تحت ضوء خرزة زرقاء إذا اعترف بماضيه؟.. هل يمكن للعكس أن يحدث؟ .. أن تدخل ربيكا غرفة باردة لا تدفئة فيها وتجلس على سرير اعتراف طبيب عربي بارد لتطلق أسرارها المخنوقة مثل بركان ينفجر؟ من هي لتنتقل من موضوع إلى آخر، وتحدد أو تقول من هو ابن الهاوية؟.. إنها تضع فمها الصغير قريباً من فمه بحجة الاشتباه بمرض نفسي والرغبة في المساعدة.. وهو يشعر باللذة أحياناً وهي تفعل ذلك، بل ويتملكه الخدر كلما اقتربت منه .. فهل هي التدفئة التي تجعله يشعر بالراحة واللامبالاة؟، أم إنه مستمتع بخياله الصامت.. لابثاً مستتباً أمام امرأة جميلة تتصرف بشكل مبرمج كالماكنة؟.. لو كانت في

بلده لما بدت عروساً بيضاء كشجرة المشمش.. لكانت امرأة طاعنة في السن يناديها الجميع بالحاجة.

كان الوقت بداية كانون الأول، عندما وضعت ربيكا أمامه قدح شاي ساخن يتصاعد منه البخار، وفرشت أمامه ورقة أخرى، ونظرت له باهتمام وكأنها فعلا تريد أن تعرف:

- ماذا ترى؟

نظر إلى الورقة الممرغة بالحبر ثم إلى وجه المترجم.. كانت عيناه كبيرتين واسمه سليم، يبدو أنه قد جدد نظارته الطبية للتو لأنها بعيدة جداً عن أنفه... النافذة مفتوحة والغيوم تتلبد في السماء بشكل يوحي بأن الوقت مساء وليس ظهراً..

- ماذا رأيت؟

- .....

- ليست هناك إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى.

- .....

لم ير محمود شيئاً، ولكنه سمع صوت الصواعق في السماء، وتمنى لو عاد أعمى، كما كان أول مرة قبل صلاة الفجر في يوم يبعد عن هذا اليوم مسافة ألف سنة ضوئية.. عشرون ساعة هي عدد الزيارات التي سيبدو فيها مثل صورة فوتوغرافية خرجت تواً

من شريطها المكنون، ولكي يراها الآخرون فيجب أن تلمسها الأصابع وتتلوث ببصماتهم..
سيبدو بقايا إنسان قديم أمام تلك المرأة التي تتنوع دببها البيضاء والرمادية فوق منضدة الكومبيوتر، وتزداد بطاقاتها الملونة فوق الجدار القريب من النافذة.
كان الوقت بداية كانون الأول.. والصواعق تزعق في السماء.. وربيكا تنظر إليه خلف باب الغرفة الدافئة.

23

الحزن والمسرّة

يوم الخميس الذي أعقب ذهابه إلى الدير قبل ثلاثة أعوام، كانت قدماه قد قادتاه إلى شيخه عبد الرحمن الذي استقبله بابتسامة ميزها بالطيبة والسماحة بعدما أصبح يعرف أن تعابير الوجه، والفم منها على وجه الخصوص، هي التي تسم الوجه بميسم البراءة أو القبح أو الطيبة أو التكبر. فوجد الجمال في وجهه ووجه عمته ووجه هند، ووجد البشاعة في وجه السائق الذي ينقله مع الفرقة إلى أعمالهم ومواعيد تصويرهم. أما أبوه، فكان وجهه ينطق بأكثر من تعبير، ليس من بينها واحد قبيح أو مستهجن، ولكن عيونه أحياناً تكون غير مفهومة لمحمود، إذ لم يكن بإمكانه التمييز بين الكثير من تعابير العيون او استيعابها خلال أيام قلائل بعد إبصاره.

كان قبل ذلك الخميس قد ضج من البيت إلى الشارع الذي رأى فيه الغراب أول مرة..وظل ضاجاً بالحزن والحيرة وهو يفكر في إثمه وإثم أبيه، ولكن الشمس أشرقت بعد يوم عاصف وممطر فشعر بها تمحو آثام الجميع مع ما تمحو من الفوضى والأوساخ والأوحال.. تماماً كتلك الشمس التي تشرق الآن بعد المطر لتمحو الحزن وتمنح النور والبهجة.. فيتجدد الأمل وتتسلل الحياة من الحواشي إلى القلوب وتتراجع، صاغرةً، كل الأسباب والعثرات التي

تهوي بأجمل لحظات السعادة إلى أسفل درجات البؤس والتعاسة والحضيض.
الآن يكتشف كم كان ممكناً عليه أن يعيش بلا عينين تبصران وبلا ساقين يمشي بهما. ولكن من غير الممكن أو ربما المستحيل العيش بلا فسحة من الأمل تجعل الوجود على هذه الأرض ممكناً. فما أسعده بهذه الفكرة التي هدهدت ظنونه وأعادت إليه راحة باله، وإنْ لم تستطع محو السؤال الذي يعذبه بأنْ لا يكون للجمال الخالص، الذي يملأ الدنيا، من حوله، البهجة والقدرة على هزيمة الشر المحتوم. لو تساءل الآن: لماذا يشعر بالراحة التامة عندما يدخل إلى الجنينة، ويجلس بين ورودها وأشجارها وألوانها؟.. لقال إن فيها الحياة الوحيدة التي لا تشكل خطراً على الإنسان، كما هو حال الوحوش والحشرات والضواري بل حتى الطيور. فهل سر الحديقة في سلامها وأمانها؟ وألهذا يُرتفق باللون الأخضر للدلالة على السلامة بحيث يمكن للسائق أن يراه فيعمد إلى اختراق الطريق وهو آمن؟ أسلام الحديقة هو سرها؟! وهل هو أيضاً سر سلام السماء الدنيا التي زينها اللـه بزينة الكواكب؟
قال شيخه عبد الرحمن حينذاك، بعد أن سمع منه أفكاره حول شعوره بالراحة التامة وإحساسه بالأمن والسلام عندما يدخل حديقة:
- بل سر الحديقة في أن تراها وتتقي أخطارها. كنت تسمع طنين النحلة، الآن تسمعه وترى النحلة.. والسمع أول

الحواس قبل الولادة، وآخرها بعد الموت. يقول المثل الشائع بين الصدق والكذب أربعة أصابع.. يقصدون بذلك أن هذه المسافة بين الأذن والعين تبدو صغيرة جداً، وظاهرياً ليست ذات بال، ولكنها حاسمة لقطع الشك باليقين، "قُتل الإنسانُ ما أكفرَهُ"، فتراه ينظر أحياناً ولا يبصر شيئاً.

- ولكن أين العدل فيما حدث ؟

كان محمود يقصد اثمه واثم أبيه وموت سائق الأجرة وتمزق فادي إلى أشلاء ولكن شيخه عبد الرحمن لم ينتبه لقصده ولربما انتبه وأجاب سؤاله بطريقة أخرى ..قال له في ذلك اليوم البعيد وهو ينظر إلى مسبحة بين يديه بينما يبدو من خلفه شارع مهجور تطل عليه نافذة غرفته في دار المسنين:

- إن كل شيء فينا ومن حولنا عدل..منذ بدء الخليقة والناس بين شر وخير.. ولولا الشر ما كان الخير، ولولا الليل ما كان النهار، ولولا الموت ما كانت الحياة. وكل شيء خلقه اللـه إنما بقدر. فهو الذي قدّر وهدى، انظرْ إلى قلب الإنسان، وهو كون مصغر، كيف ينبض بانتظام ولا يختل ولا يتفاوت إلا لعلة أو سبب، هذا هو تقدير العزيز الحكيم.. وانظرْ إلى الشمس كيف تجري إلى مستقر لها، والقمر كيف يعود كالعرجون القديم، انظرْ إلى الطير في وكره، والوحش في قفره، والإنسان في سره وجهره، لن ترى، في خلق الرحمن من تفاوت أو قصور، وانظرْ إلى العينين والمنخرين والأذنين

واليدين والقدمين لترى العدل والدقة في المقدار. وفوق ذلك كله والأهم منه فإن الإنسان لا يبدو مخيفاً في شكله أو موحشاً في إهابه، إذ ليس له الذيل أو الفرو أو المخالب أو الأنياب أو الأبر.. وليس له الدروع ولا الحراشف أو الأشواك والقرون.. ولكن لديه العقل، ويكفيه العقل لكي ينجو، فأكثرْ من عملك واقصرْ من أملك واترك الباقي لله عز وجل.

24

النار والحجر

الوقت نهاية كانون الأول.. والصواعق تزعق في السماء.. تلك كانت رسالة أخرى خفية تزامنت مع رائحة طعام ذكّرته بأن الوقت ظهر وأن عمته ستأتي بعد قليل لتجعله يتناول الطعام ويشرب عصير البرتقال. تمنّى لو أنه لم ينظر من تلك النافذة المسحورة قط.. يوم صعد أول مرة الى أوج العمارة والقطة السوداء تلاحقه.. تمنّى لو أنه لم يرسل لنفسه تلك الرسالة ذات المنديل الورقي... تمنى لو أنه لم يأت إلى هنا..ولا إلى الحياة.

كانت ربيكا تطلب منه أن يناديها باسمها الأول وأن يتحدث إليها بشكل مباشر بالإنكليزية، ولكنه كان يفضل التوجه إلى المترجم ذي العينين الكبيرتين لكي لا تزيده لعثمة اللغة نقصاً في الرجولة. كان يجد أحياناً بعض القشرة على كتفيه أو بعض الفتات حول فمه، وذات يوم وجد بقايا كحل قرب أذنيه. لم يخبر أحداً من أهله أنه أصبح مريضاً نفسياً يجب أن تعثر له ربيكا على أخطاء من الماضي وتحللها له وتحولها إلى تقارير وحكايات. أصبحت حياته كذباً في كذب، وخجل من أن يخبر أحداً بقصة المنديل الورقي الذي تحول إلى قضية يجب البحث فيها وعلاجها بجدية.. لقد أرسل المنديل الورقي لنفسه بدلاً من أن يرميه إلى سلة المهملات . كان يريد التأكد من أنه موجود في العنوان الصحيح، فأين الخطأ في ذلك؟

أم لأنه عربي يريدون الافتراض بأن خلف ذلك الخطأ توجد أخطاء كثيرة يجب الاعتراف بها؟ ماذا تعتقد ربيكا أنه سيقول لها عبر المترجم ذي النظارات البعيدة عن أنفه؟ هل يقول لها إنه تمنّى موت أبيه بدلاً من أمه؟ هل يعترف لها بحبه لهند أم بزلّته مع أمها؟ هل سيلعب كالبهلوان على حبال الماضي التي أسمتها أشلاءً، ويقول لها ما لم يستطع أن يقوله كاملاً لشيخه عبد الرحمن؟.. لقد قال له إن زليخة وطئته مرة واحدة، فهل يقول لها إنه وطئها مرة ثانية بعد المرة الأولى؟.. هل يخبرها بأن أباه كان السبب في عماه وليس طائر الببغاء؟ هل يقول لها إنه لم يسقط من السطح، لأنه كان يلاحق الببغاء الهارب من القفص ولكنه هو الذي أخذ القفص للسطح وفتح بابه للببغاء لكي يهرب، فلما سمع وقع أقدام أبيه تصعد الدرجات ببطء خاف ولم يعرف أين يهرب فقفز من السطح وارتطم رأسه بجذع شجرة الزيتون .. هل يقول لها إنه وجد الببغاء أكبر من أن يوضع في قفص وإنه أشفق على مخلوق له فم متكلم أن يوضع داخل قفص؟.. هل يخبرها بأن سائق باص المدرسة قد أسماه بالحمامة، ومد يده السمراء الغليظة إلى تحت حزام سرواله الصغير؟.. هل يخبرها بأنهم قد دفنوا سرته في قبر جدته المجنونة التي ضمتها في منديل معقود لحين أصابها الجفاف وتحولت إلى رماد؟.. هل يخبرها بإنه كان يحلم أحيانا بأن عينيه مدفونتان في ذلك القاع المظلم أيضاً، وبأنه رأى في تلك الأحلام أثداء جميع النساء اللائي رآهن في حياته، وبضمنهم ربيكا التي

كانت في عمر أمه؟.. هل يخبرها بأنه ظل مبصراً سبعة أيام دون أن يخبر أحداً بذلك سوى شيخه عبد الرحمن، وبأنه داخ وصُدم حينما رأى الناس وقد تحولوا إلى مسنين طاعنين في الشيخوخة؟.. كانوا أطفالاً عندما أصابه العمى فكيف يجدهم فجأة بشراً يائسين ساخطين مليئة وجوههم بالتجاعيد كتلك التماسيح التي رآها تخرج من بحيرة ماء رقراق.. أن رؤيتهم وهم يتحركون في شتات تتعب عينيه وتجعله يضيق بهم ويهرب منهم ويريد اعتزالهم جميعاً لأنه لا يستطيع لحد الآن النظر في عيونهم أو قراءة تعابير وجوههم وتمييز الطيب من الشرير منها.. هل يخبرها بقصة سائق الأجرة الذي أوصله محمود إلى حتفه دون أن يقصد؟.. أم يقول لها أنه تمنى الموت لنفسه أول يوم وصل فيه إلى هذي البلاد الغريبة وأنه يتمناه الآن أيضاً.

لقد وجد صعوبة في المشي على سجادتها الدافئة ذات اللون الحليبي الرائق، فكيف يتجول معها فوق سجادات أفكاره الكئيبة التي تشبه ساحات الإعدام الباردة السوداء؟.. هل ستتحول إلى كاهن يأخذ منه خطيئته إذا اعترف ثم يرمي تلك الخطيئة إلى بحر النسيان؟ وماذا عن خطيئة بلدها التي أوصلته إلى هنا ؟هل ستستطيع رميها إلى بحر النسيان هي الأخرى أم ستعثر لها على جواب أفضل من جواب شيخه عبد الرحمن؟...

- وبماذا فكرت أيضاً غير الانتحار؟

وجم محمود، وتشكلت تلك الخطوط البيضاء أمام عينيه.. فقد أخرجت ربيكا الخاتم من بطن السمكة الميتة في بحر النسيان وأعادته إليه.. ما أفادت كلمات شيخه في محو الأفكار السوداء التي كانت تدخل من بابها المفتوح دائماً على مصراعيه، فكان محمود يحاول إغلاق الباب بقوة. راحت الخطوط الشفافة تتدلى مرة أخرى بينه وبين ما يرى، فأغمض عينيه ثم فتحهما ليجد ربيكا أمامه وليس شيخه عبد الرحمن . كلمة أخرى من ربيكا وتبيضّ عيناه حزناً ويعود أعمى.. أهكذا كان من ابيضّت عيناه من الحزن وهو كظيم؟.. أهي الحيرة التي أصابت العين بالبياض، أم الصمت والسكون والإحساس بالفراغ الذي تمليه حالة الحزن الشديد؟. شعر محمود بذبذبات الأفكار في رأسه تتحول من الصمت أحياناً إلى أصوات، وإلا كيف عرفت ربيكا بأنه قد تمنى الموت لنفسه كما فعل ذلك اللاعب الذي رمى نفسه تحت سكة القطار؟. نظرت بعينيها الزرقاوين إلى عينيه، فخاف وشعر بهما يؤذيان عينيه...

ثلاث زيارات مرت عليه وهو لا يقول شيئاً محدّداً، وأفكاره الأولى تعود إليه، ولحظات الافتداء لسعادة عابرة تلحّ عليه، وفي الزيارة الرابعة اقترح عليه المترجم أن يوصله إلى البيت. فلما انتهيا من قطع الممر الطويل المؤدي إلى باب العمارة، قال له :

- حسناً فعلتَ بِصمتِك.. فهذه المرأة لزبن.

- وماذا يعني ذلك؟

- يعني أنها تعيش مع صديقتها كزوج وزوجة، ويتبنيان طفلة كمبودية كابنة لهما.
- ماذا تقول؟
- هذا ما أقوله.. هذا الشيء مسموح به هنا.

تروب.. والتف نصل حاد كحبل المشنقة على عنقه وانفتحت باب حديدية مخيفة تحت قدميه سقط منها إلى جب عميق، وارتطم جسمه بالأرض ورُمي الحبل بعده وانغلق الباب.

25

السماوات والارض

عشر زيارات أخرى مرت، وصمتُه يزداد، وحزنُه يعود إليه مرة ويذهب مرة أخرى، وأفكاره الأولى تتردد في رأسه من جديد. شعر فجأة بأنه يشتاق إلى الـلـه.. يشتاق إليه كثيراً.. وللتو يتذكر أنه لم يقرب الصلاة منذ أن صلى الفجر أول يوم جاء فيه إلى البلاد الغريبة.. ومع كل زيارة تمر كان يزداد اشتياقاً إلى شيخه عبد الرحمن الذي كان يلعن عمى البصيرة ويردد: "وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً". تذكّر أيضاً ما كان شيخه يقوله له من وجوب سلوك الجامع عند الذهاب من طريق آخر غير طريق الإياب لكي يلتقي أناساً جُدداً يفشي السلام بينهم فيكسب أجراً بذلك. كان شيخه لا يملك على منضدته غير كتاب الـلـه وراديو ومرآة مكسورة، الحاجة إليها بدت ضرورية جداً ومستمرة. أما هذه الدببة والأرانب والورود فإنها لا تثبت في مكان قط.. تتساقط من الأرفف إلى الأكياس، ثم تُرمى الى سلة المهملات قبل أن تبلى أو تتدلى أحشاؤها على الطريق، بينما مرآة شيخه راسخة في مكانها حتى وإن امتلات بالشروخ... تُرى أين هو الحد الفاصل بين الخطأ والصواب؟ وكيف يكون الصحيح صحيحاً، وهو يتبدل باستمرار ليحل محل أشباه له تذهب إلى سلة المهملات؟.. أتكون أشياء ربيكا قابلة للتلون مثل بقع الحبر؟:

"ليست هناك إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى"
رأى الوجوه المتعبة والبيوت الرثة في بلاده، وهو يرى الآن الوجوه النضرة والبيوت الجميلة في هذي البلاد.. فعن ماذا تتحدث هذا الطبيبة النفسية وجاره ألبرت قد استلم عشرة آلاف دولار تعويضاً عن خطأ أدى إلى قلع ضرسه السليم بينما فادي اختلط التراب بدمه وفمه وتقطعت أوصاله من أجل السعادة الأبدية لمن فجره ومن جاء بمن فجره إلى هذا العالم؟.
يتذكر الآن عبارة كان يقولها له شيخه عبد الرحمن باستمرار: "الرجل هو الواجب، والإنسان هو الواجب"، فأين هو الواجب في هذا المكان؟.. أفي العمل، أم في الحب، أم في كسب القوت؟ أفي تلك الورود التي يضعونها في قواريرهم، أم في تلك الأجسام المنحوتة في صالات الجمّ من أجل السعادة والحاجة إلى البقاء؟.. ها هو يعثر، في رأسه، على ذبالة شيء مشترك يمحو كل التساؤلات الكثيرة.. الحاجة إلى البقاء؟.. حاجته إلى البقاء أملت عليه المجيء إلى هنا، فهل حاجتهم إلى البقاء أملت عليهم الكذب على أنفسهم والتظاهر بالاهتمام به ،مثلما أملت عليه الكذب على أبيه عندما أخبره بأنه هنا على ما يرام...
- أين أنت؟ لماذا لا تتصل؟
- أنا مشغول جداً بالعمل.
لم يخبر أباه بأنه موجود في عيادة نفسية في عيد الأضحى، كما لم يكن قد أخبر عمته بأنه موجود في بيت جاره ألبرت في عيد

الهولووين.. ولكن عمته لم تعد ترد على اتصالاته وتجعل هاتفها مغلقاً طوال الوقت، وعندما سأل أباه عن ذلك قال له إن عمته لم تعد تقوَ على حمل الصحون إلا بشكل مائل وإنه أصبح يشوي الكباب في أوقات متباعدة. شعر محمود بأن كلام أبيه غير مترابط وأنه يكذب عليه وأن مكروهاً قد حصل لعمته، فدمعت عيناه من الحزن وقال له: أسمعُ أصوات بكاءٍ، يا أبي، فماذا حدث لعمتي؟، فقال له فجأة إنها قضت في انفجار.

ضاعت منه روحه وتبعثرت في كل مكان، وبدلاً من أن تسيل الدموع على خديه سارت من خلف عينيه إلى بلعومه ثم حرقت قلبه بماء كالنار.. روحه أصبحت كجدارٍ، ونقاطُ الماء الحارقة تسقط فوقه ولا تتبخر.. الآن سيتحدث لربيكا عن عمته هاجر.. الآن سيبحلق في عينيها الزرقاوين ويتفجر كالبركان عن حمم وكلام يجعلها تكف عن تفجير بقع الحبر أمام عينيه.. الآن سيسمع ثم يجيب.. سيخبرها بأن عمته هاجر هي بعمرها تماماً ولكنها لا تملك سوى ظفيرتين بيضاوين ووجه خال من المساحيق والألوان.. سيقول لها أيضاً إنها تعرف أسماء جميع الكتب التي غيرت حياته، ولكنها لا تعرف من التمارين الرياضية التي تعرفها ربيكا، إلا غسل الملابس وتعليق الستائر، لذلك فقد احدودب ظهرها وتضاءل جسمها إلى جسم طفل. كانت ستذبل ويذبلان معها هو وأبوه إلى أن ينتهي الزمن بسلام حيث الدين ينقذهم من التفكير بما لا يريدون التفكير فيه، أو النظر إلى حيث لا يريدون النظر.. لم تُرزق

بابن، فكان محمود ابنها الذي تجوع إذا جاع وتعطش إذا عطش. لم يبك حتى يوم الفطام، فكانت تشفق عليه من العمى ومن السكوت وتداويه بولائم الطعام والشراب وتقول له: "تذوّقْ الأكل يذهبْ عنك الحزن، وعش سعيداً وبعيداً عن الأذى، لأن الموت أقوى من الحياة.. فلا تمت قبل أن تعيش".. سافرَ ولم تجد من تطعمه سوى الحمام، وأخذت تجلس في الشمس فتمتزج معها ولا تهرب منها إلى غرفة باردة أكثر مما يجب أو دافئة أكثر مما يجب.. كانت تعشق ضوء الشمس وهو يشرق على أرض لا زخرف فيها ولا شيء.. وتستلذ العيش بفطرة الوردة وبداهة الشجرة فلا ترمم جسمها بريجيم كاذب ولا تكنس بيتاً وقت الغروب ولا ترمي فائض طعامها إلى سلة الزبالة.. كانت تعرف أفضل منكِ، يا ربيكا، وتمتلك حلاً بسيطاً لكل شيء معقد، فهل تريدين معرفة ما أرى في بقعة الحبر؟..أرى مقبرة هناك وأرى حديقة هنا...

"ليست هناك إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى"

رأيت الألوان واستمعت إلى الطيور والديدان، وبعد ذلك كان علي النظر إلى أبناء الإنسان.. هبطت معهم تحت سطح الأرض وفوقها عبر سلالم كهربائية مغطاة بأقدام البشر وبأيديهم المربوطة إلى حجر ثقيل هو الأكياس.. أكياس جميلة ملونة لو أخذتها إلى عمتي لطوتها ونظرت إليها طويلاً كما تنظر إلى ستائرها بعد غسلها وتعليقها. أما هذه الاكياس فتسبح في لجة البحر كل يوم بشكل جديد مختلف، كما الأسماك الملونة في أحواض الأكواريوم..

ليست سوداء كأكياس بلادي ولكنها تتلون بجنون وتتجدد بلا انتهاء. إنها تستحق العرض على جدران المتاحف كعلامة من علامات هذا العصر وهذه الساعة. لم أعد أنظر إلى البشر بل إلى أكياسهم.. أراقبها وأشعر بالشبع دون أن أشتري.. كنت سأصبح محموماً مثلهم ذات يوم، وعلي الآن أن أختار بين اثنين.. أن أطرح نفسي من هذا العالم وأعود إلى بلادي، أو أن أضيف نفسي إليه بعد أن أربط قدمي إلى حجر ثقيل لا يطفو مع الموج... أخاف أن يطويني الموج كما طواهم ونفخ أكياسهم الملونة.. وها هو أحدهم يجري لاهثاً كالمجنون خلف عربة الترولي المملوءة بتل من تلك الأكياس.. يركض يركض يركض خلفها، فيعتقد محمود أنه ذاهب لإنقاذ ابنه الجالس في مقدمة العربة.. والطفل ضاحك لا يعرف أن العربة تأخذه إلى هاوية الطريق.. إنها تتحدرج بثبات إلى تلك الهاوية، والأب يركض خلفها، ولكنه عندما يصل إليها يرفع، ضاحكاً، علبة رقائق الفطور الصباحية ويعطي الإشارة للمشاهد بأنها المقصودة بالإنقاذ بعد ذلك الجري المحموم وليس ابنه.

ليست هي المرة الأولى التي يجد فيها أباً ينقذ مشترياته بدلاً من ابنه.. وخمن أن أمه ميتة وأنه ضائع بدون أم مستعدة لانقاذه، بينما الأب يبتسم أمام الكاميرا. الفكرة تولد أولاً ثم يتبعها الناس.. تذكّر الطبال والزمار والرقاص والمتعري واللزبن.... كلهم كانوا في العقل الباطن، ثم جاءت عدسات الكاميرات وجعلتهم يخرجون من الباطن إلى المعلوم. مُخرج هذا الإعلان خطا الخطوة الأولى التي تتبعها

آلاف الخطوات، ولا أحد يبالي بوقف التصوير هنا أو قطع ما يجب أن يُقطع، بل إن الدرب تصنعه خطوة واحدة ولا يحتاج إلى أن تحفره آلاف الخطوات.

"لا توجد إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى"

كانت الخطيئة الأولى التي استدعت إيقاف التصوير في بلاده هي إحضار بنات جميلات إلى موقع تصوير نشيد وطني.. احتج مدير الفرقة ورفض العمل ثم ألغى التصوير.. هل كان مخطئاً في ذلك؟.. كان مخطئاً حسب صديقه عصام، ومحقّاً حسب شيخه عبد الرحمن..

ولكن محمود لا يستطيع أن يقول هذا ولا ذاك، بل أن يتسلق الحبل المشدود بين الاثنين لكي لايسقط في الهاوية .. إنه يخاف من السقوط فيها ويحلم بها مشتعلة دائماً بالنار التي يحترق بها ألبير وانكة وعبد النور... كان يستيقظ قبل السقوط الوشيك ليجد نفسه غارقاً في العرق المتصبب من فرط سخونة النار..بل يكاد يشعر بحرقة في يديه اللتين كانتا تتشبثان بالحبل المشدود فوق الهاوية ..إنه يفكر أيضاً لو كان ذاك المدير هو السماوات وهذا المُخرج هو الأرض، فلا شئ يفصل الاثنين عن بعضهما سوى الهاوية المشتعلة بالنار ، حتى وإن اعتلاها سلم كهربائي مضيء.. أما إذا كان أحدهما الأم والآخر الأب فيجب أن لا تموت الأم بوقت أبكر من الأب. أليس كذلك؟

"لاتوجد إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى"

كان أبوه زير نساء لا يكف عن قول الأكاذيب واختراع النزوات.. وكان محمود لا يحتمل أحياناً الجلوس معه في مكان واحد أكثر من ساعة واحدة. فهو المتسبب في عماه وفي خطيئته وربما بهلاك أمه بالسكتة القلبية.. ألم يتزوج بعدها بأربع نساء؟.. ألم تأكل رأسه نفس الجرادة التي أكلت رأس ابنه؟... كرر ذلك ثلاث مرات ثم قال: مع ذلك، لم أكن أرضى أن تصبح أعضاؤه وقوداً لغرفتك الدافئة، ولا كانت عمتي ترضى بذلك، رغم أنها كانت تضيق به وتصفه بالعصا العوجاء.. فهو من أهل الجن وهي من أهل الـلـه، ولم تكن في رأسها سوى سعادة واحدة، هي الجلوس في الشمس أوقات الظهيرة ومذياعُها يدور بكل الأصوات القادمة من أنحاء الدنيا.. تقول إن تلك الألسن سلوتها وصحبتها الطيبة.. وكانا سيذبلان بسلام في تلك الحديقة، كلٌّ مع متاعه، حسناً كان أو غير حسن... عمراهما كانا سيكتملان في أجل محتوم ثابت في المكان والزمان..

ولكن الموت أصبح يلعب لعبة الغميضة في الطرقات.. والمنايا ترمي سهامها خبط عشواء.. فيكون الذهاب إلى الصيدلية بدلاً من الرجوع إلى البيت حائلاً دون الاحتراق بسيارة مفخخة أو يصبح تغيير الطريق بعد دقيقة من شراء الخبز هو الحد الفاصل بين النجاة من الموت أو التحول إلى أشلاء مبعثرة في انفجار رهيب.. وماذا أيضاً يمكنه أن يجعل الأجل أقرب إليه من حبل الوريد؟ شريط حذاء يجب ربطه أو ذبابة يجب طردها أو وقفة قصيرة من أجل شربة ماء؟.. ألم يمت فادي بسبب طائرة ورقية وعمته بسبب

علبة ملح وسائق التكسي بسبب قدح شاي.. أرواحهم تحوم كالهامات (*) فوق القبور وتصيح اسقوني من دم القاتل فمن هو القاتل؟

- لا توجد إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط اخبرني بما ترى.

أرى صاحب القدم المبتورة، التي سقطت في حديقتنا ودفناها تحت شجرة الزيتون، يجلس في المقهى مع فادي مرتدياً حذاءً غريب اللون، بينما عمتي تعود صبية تقود كلباً وتمر بالقرب من المقهى.. أرى من مكاني في باب الدير انتحارياً يتقدم نحوها وأحاول الصراخ لتحذيرها دون أن أستطيع الصراخ.. كان كابوساً شبيها بكابوس الحافلة.. تمنيت الاستيقاظ منه لكي أَعبُر إلى لذة الصحو.. لذة أن يكون الموتى أحياء في الصحو وأن لا يكون الأحياء موتى في الحلم.

- لا توجد إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط أخبرني بما ترى.

أرى قمراً وأرى بئراً ورجالاً بلا آباء ولا أسماء آباء يقفزون من القمر إلى البئر.. نحن في واد يابس وهم في واد أخضر... نحن في الأرض وهم في القمر... هم كل شيء ونحن لا أحد.. هكذا تقاطعا متاعنا مع متاع آخر يجري إلى أمام ويصطنع له وادياً آخر هو وادي الأنوار التي تشبه الظلمات.. تقاطعت كوابيسنا مع أحلامكم السعيدة، فكانت هاجر وقوداً لغرفتك الدافئة أكثر مما يجب ولسجادتك الدافئة أكثر مما يجب.. فما رأيك، يا ربيكا، في أن تضعي رأسها المقطوع في مدفأة عيادتك ورجلها المبتورة في

مدفأة بيتك، وإذا تبقى شيء من الأصابع فضعيه في مدفأة سيارتك؟.. كان يتحدث بهدوء ولا يصرخ، ولكنه كان ينود برأسه كما لو كان يضرب جداراً غير مرئي.. عاد طفلاً يحتجّ في الظلام على غياب أمه ولا يفهمه. هزت ربيكا رأسها أسفاً، وقالت وهي تحتضنه: "آسفة لما فعلتْه بلادكم ببلادي".. ثم فزعت وقالت: "أقصد ما فعلتْه بلادي ببلادكم"... وكان واضحاً أن لسانها خانها، لإنها أكلت كثيراً من الكلام وأنها قد تعبت وشبعت من كل هذا الكلام، فقال محمود بأسى: لا توجد إجابة صحيحة أو خاطئة.. فقط دعيني أعيش بسلام.

هذا المكان إن بقي فيه، فيجب أن يربط قدميه بحجر ثقيل قبل أن يقذف نفسه إلى لجة البحر.. يجب أن يعرف أولاً أين مكان الجامع فيه؟.. لا يوجد أذان يدله على اتجاهه عبر هبوب الريح.. ولكن يوجد شيخ سيسأله عن ذلك.. لا.. لن يسأل شيخاً أو أحداً عن ذلك لئلا يشعر بالبلاهة... بل سيترك القياد لقلبه كيما يخبره بما يريد ويرضى...

عاد محمود ليفتح كتاب شيخه عبد الرحمن عن إعراب القرآن، ويقرأ فيه، ثم أغلق الكتاب وقرر إهداءه إلى الجامع في الاحتفال الذي قالت له عائلة عربية إنه سيُقام بمناسبة رأس السنة الهجرية، حيث سيُرفع الأذان بشكل رمزي مرة واحدة وقت الظهيرة. سينتظر تلك الظهيرة التي سيرتفع الأذان فيها عند بدء السنة الهجرية، إذن، ثم يترك القياد لقلبه كيما يخبره بما يريد ويرضى... لا زال

يهدي الفاتحة للأموات ويقرأ الشهادة والمعوذتين قبل أن ينام، ولكنه لم يعد يفعل غير ذلك منذ شهور طويلة.... كلماته لشيخه عبد الرحمن، قرب مرمرة القبر، يتذكرها الآن بوضوح..
"أنت يا شيخي الذي أمليت عليّ حب الإيمان، وعصام أملى عليّ حب الشكوك، واستاذي ألبير أملى عليّ حب الموسيقى، وأبي أملى عليّ حب الشهوات، وعمتي أملت عليّ حب الكتب... جعلتموني أكون كيفما تكونون لاكما أريد أن أكون..... لم يكن لي درب وأنا أعمى والآن أريد أن يكون".

هل نجحت ربيكا معه؟.. كان يقول لنفسه وهو يقترب منها شيئاً فشيئاً، لازال يخبرها بما يرى لعلها تستطيع تخليصه من هموم الماضي وجعله يتطلع الى أمام مقترحةً عليه أن يقيم معرضاً لرسوماته البدائية مؤكدة له أنها ستجد لها الكثير من المشترين... يشعر للمرة الأولى بأن أفكاره لا تقوده إلى الحزن، وإنما إلى ظل بارد يركن إليه وحيداً بعد جهد جهيد، فيشعر باسترخاء عميق شبيه بتلك الراحة الغريبة التي شعر بها بعد أن أقفل الباب على أبيه والتقى الغراب العائد الى وكره فوق نخلة مقطوعة الرأس قبل ثلاثة أعوام .. إنه يقترب من نفسه سعيداً لا مبالياً.. شاعراً بخفة الطائر الذي لا ينظر إلا الى أمام.... ليخبر نفسه بما يرى.

سمعه مذيع التلفزيون فتمنى له سنة سعيدة أخرى بعد أن قال إن لعبة السودوكو تحمي الإنسان من الخرف، وإن المرأة إنْ لمسَتْك فلن تشعر بالتعب أو المرض أو الإنهاك. وهذا ماأصبح عصام يفعله عندما يتنقل خفيفاً من مدينة إلى مدينة.

لم يعد البخار يتصاعد من كوب الشاي، إنما يتكاثف على الزجاج في الغرفة المختنقة بالدخان..

قال عصام:

- إنها الثانية عشرة.. حان وقت ذهابي.

قال محمود وهو ينهض من فراشه:

- ولكني لن أجئ معك.. لازلت أفكر بما حدث لي؟

- لا تعقَّد الأمر يا محمود، ودع ما لا تريد إلى ما تريد.

- ولكنهم هم الذين لم يدعوني لحالي؟

- حالك غريب وكئيب. لم يكن إلا تشابهاً في الأسماء يا مخمود؟

لم يضحك محمود لضحك عصام ولكنه قال:

- ولكنهم أنزلوني مرتين. مرة من الطائرة ومرة من الحافلة.

- وأنت أيضاً تصرفت بغرابة عندما أرسلت لنفسك رسالة مشبوهة؟

- كنت أريد التأكد من أنني موجود في العنوان الصحيح؟

- لو كنت قد دققت في أوراقك لوجدت العنوان فيها.

- هل نسيت اني لا أجيد الكتابة أو القراءة بالإنكليزية، والعنوان كتبه لي صاحب البيت على ورقة أحملها معي أينما أذهب مع وثيقة السفر. وهو الآخر مهاجر لا يفهم كثيراً في اللغة الإنكليزية.

- دعك من هذا الآن.. لقد اعتذروا لك بما فيه الكفاية عما فعلوه.

- وحقيبة سفري السوداء تلك التي اشتبهوا بها وأعادها لي ألبرت.. هل تُصدّق أني لا أعرف ما أفعل بها، وأخاف الآن أن أرميها إلى برميل المهملات مرة أخرى.
- هاتها.. سأضع فيها عدّة اللوري من المفكات وقطع الغيار وقناني الماء المقطر.
ثم دعاه عصام مرة أخرى إلى مرافقته إلى فرجينيا لرؤية صديقاته الجميلات هناك. اعتذر له محمود قائلاً إنه يعد العدة لإقامة أول معرض للوحاته.. ولم يقل له إنه ينتظر أيضاً رفع أذان الظهر في ظهيرة رأس السنة الهجرية.. وجد ذلك سيكون بالنسبة لصديقه عقيماً كعود رمان يابس .. ألحّ عليه عصام للذهاب معه وهو يقرع نخباً أخيراً لنفسه قبل أن يلملم علب البيرة الفارغة وقشور الفستق ويرميها إلى سلة المهملات. هبط الاثنان سلالم العمارة وغادرا إلى ساحة السيارات حيث يوقف عصام سيارة اللوري قريباً من محطة القطار.. صعد إليه، ودعاه إلى الصعود وقال له ضاحكاً، والهواء بينهما بارد كالجليد:
- ها؟.. ألن تأتيَ معي؟
- ....
- هيا.. اصعد، يا محمود.
- ....
- اصعد.. ستقيم صديقتي حفلة عيد ميلاد لكلبها وستمتلئ حديقتها بالجميلات، فهيا أعطني يدك.

- ....

- كلبها اسمه شار.. ولكنه ليس شار إيران.

قهقه عصام حتى أعاد رأسه إلى الوراء من شدة الضحك... ابتسم محمود معه وهو يرفض الصعود إلى المقصورة الدافئة حيث حالَ الزجاج المضبب بين الاثنين واختفى رأس عصام الملحن خلف نافذتها.. صغيرَ الجرم متلاشياً خلف صورة فتاة عارية.

سيتذكره محمود بهذه الصورة ما تبقى من حياته.. (مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ)

يدرج ماخراً في بخار الطريق تاركاً إياه يلوح له باسماً ومودعاً.. ذاهباً إلى المكان الذي كان يريده دائماً.. لا فرق عنده أنه هنا أو في الجهة الأخرى من العالم.... المهم أن يكون درباً طويلاً يسافر عليه بلا انتهاء.. كانت فكرة المجيء إلى هنا هي فكرته أساساً.. وها هو يمضي مبتعداً طافياً في مقصورة اللوري الأزرق الذي تبدو مقدمته كوجه إنسان ساخط تقريباً.

بعد أن اختفى عصام خلف بوابة الخروج، تولى محمود عن المحطة وانتقل إلى الرصيف الآخر منها، فلمح صورته تنعكس على مرآة صقيلة موضوعة خلف واجهة متجر.. رفع نظره إلى تلك المرآة.. توقف عندها ونظر طويلاً إلى وجهه..

- ومن هذا؟ أهذا أنا؟ أحقا أنا؟

لم ير شيئاً شبيها لتلك الصورة من قبل.. كانت لحيته الخفيفة قد زادت من غرابة وجهه النحيف، وبقايا بسمته الأخيرة جعلت

وجهه مشرقاً رغم التعب.. الريح الخفيفة أشعرته بالانتعاش بدلاً من البرد، ومنحته إحساساً غامراً بالخفة يتطاير من عينيه العسليتين، وينتشر مع شعره الطويل المرسل مع الريح.. لاحظ محمود شيئاً غريباً جداً في صورته قبل أن يمضي.. كان وجهه المنعكس في المرآة ينطق بتعبير غامض وجديد.. يولد للمرة الأولى في غور عينيه تاركاً في وجهه علامة فارقة واضحة المعاني.. أنه تعبير مستتب في لحظة نادرة من الوضوح.. فيه راحة عميقة تتمكن من عينيه اللتين كانتا قبل ذلك في غطاء من الفراغ، والآن تضيء بإشعاع معين يرنو إلى شيء أكيد، فيمنحه إحساساً راضياً ببداية شيء جديد.

ها هو محمود يقترب بوجهه أكثر من المرآة، وينظر ملياً إلى الواجهة، ثم يبتسم برضا وهو يرى عينيه تنطقان بالمعنى بدلاً من البلاهة.... جعله ذلك يريد الاختلاء بنفسه بعيداً عن زحام المحطة وضجيجها.. فهي لغز آخر من ألغاز الحزن الأبدي الذي يقبض روحه بلا رحمة.. وسقفها العالي مرفوع إلى أقاصي البنيان فوق بضائع وحقائب وكلاب وبشر عابرين. إنهم يتحركون في كل اتجاه حاملين ملايين العيون التي تتبادل النظر ثم تجري لتغادر المحطة ، بلا انتباه إلى غريب مثله ينظر إلى نفسه التي تتكون، تلك اللحظة، في غور عينيه.. وإلى وجهه الذي ينطق للمرة الأولى في حياته بتعبير واضح وأكيد يولد تواً من العدم.

كان ينظر إلى نفسه سعيداً في المرآة، عندما اتصل به عصام وأخبره صاخباً بأنه قد ندم على أخذ تلك الحقيبة وأنه لا يعرف ماذا يفعل بها ويشعر بالخوف من رميها إلى أي مكان.....
كان وهويتحدث إليه من الطريق المؤدي إلى جسر بورتسموث يقول له بلا توقف إن الشرطة قد أوقفت شاحنته لتفتيش روتيني فاشتبهت بحقيبته السوداء التي كان يضعها بالقرب منه، وأنزلته معها لعدة دقائق قبل أن تسمح له بالانطلاق من جديد .
- وأين هي الآن؟
- لا زالت معي وأخاف أن أرميها إلى أي مكان.. فهل أعيدها لك؟
- كما تشاء.
- لازلت قريباً منك... فانتظرني في المحطة يا مخمود.
كطفل غارق في نومه إبتسم محمود لسيدة عجوز مرت بالقرب منه متخيلاً عصام يعيد رأسه إلى الوراء من شدة الضحك، ثم أعاد الموبايل إلى جيبه وهو يتمنى الدنيا البيضاء الصافية والخالية من الهموم والبلايا.. سمعته الغيوم فانفرجت عن شمس بيضاء كالحليب بددت الظلمة بالنور.. وجعلت طيفها الأبيض يخترق ما تبقى من قطرات المطر ليخرج منها بسبعة ألوان زاهية... أما الضباب تحت قدمي السماء فأصبح مفروشاً بأوراق حمراء وصفراء فاتحة اللون جففها الخريف على أغصانها قبل أن تسقط

ميتة على الأرض.. ضوء شديد البياض راح يشرق على أوراق ذابلة بلون الزعفران... هكذا بدت له السماوات والأرض وهو يعود إلى المحطة عابراً سكة القطار.

---

*) زنانة: عامية عراقية بمعنى الرجل المتشبه بالنساء.

*) الهامة: يعتقد العرب القدامى أن روح القتيل تتحول إلى فراشة تسمى الهامة تطير وتحوم فوق قبره وتنادي: اسقوني اسقوني ولا تذهب حتى يقتل القاتل.

1. الباب والنافذة
2. السمع والبصر
3. الوجه والمرآة
4. الطير والشجر
5. الأصل والصورة
6. الوجود والعدم
7. الملاك والإنسان
8. النار والدخان
9. الذكر والأنثى
10. الشيخ والتلميذ
11. المرأة والرجل
12. الحي والميت
13. السؤال والجواب
14. الزمان والمكان
15. الماء والطين
16. البيت والمتاهة
17. الطوق والحزام
18. الشك واليقين

19. الحلم والحقيقة

20. النار والحجر

21. الليل والنهار

22. الورد والبشر

23. الحزن والمسرة

24. الجنة والنار

25. السماوات والأرض

صدر للكاتبة

- حلم وردي فاتح اللون، رواية، بيروت، 2009.
- نبوءة فرعون، رواية، بيروت، 2007.
- الحدود البرية، رواية ، بيروت، 2004.
- علامة على الجدار، قصص مترجمة، بغداد 2004.
- العيون السود، رواية، عمّان، 2002.
- يواقيت الأرض، رواية، عمّان، 2001.
- رومانس، مجموعة قصصية، دمشق، 2000.
- لا تنظر إلى الساعة، مجموعة قصصية ، بغداد، 2000.
- العالم ناقصاً واحد، رواية، بغداد 1996، عمّان، 1999.
- رجل خلف الباب، مجموعة قصصية، بغداد، 1994.
- أشياء لم تحدث، مجموعة قصصية، القاهرة، 1992.
- الفراشة، مجموعة قصصية، بغداد ، 1986.
- أساطير الهنود الحمر، مترجم، بغداد، 1986.
- الشخص الثالث، مجموعة قصصية، بغداد، 1985.

شاي العروس

وعاد محمود إلى عماه من شدة ارتباكه ، وغشته موجة من العرق ، سالت من قمة رأسه حتى أخمص قدميه ، ولم يعد عطر الياسمين الذي ملأ المكان كله يأتي من شيطان واحد ، بل من خمسة شياطين صغيرة ترتدي قمصاناً وردية وتجلس على المقاعد وتشعل فيه النيران . واحدة التفتت إليه وتهامست مع صاحبتها فشعر بأن الهواء كله يمتلأ بالهمهمات . ولأنه كان يرى ما يحدث ولا يستطيع الهروب منه ، فقد فتح زجاجة النافذة إلى أسفلها طلباً للهواء . سمعه هواء الربيع العليل ، فهب وجفف له عرقه الغزير لكي لا يقضي في بحره غرقاً .

ISBN 9957-00-452-2

دار الشروق للنشر والتوزيع

عمان-الأردن / رام الله - فلسطين